نزار نجار

صورة المشتاق

(شعر)

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

نـزار نـجار

صورة المشتاق

*** قصص ***

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1999

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

تصميم الغلاف للفنان :

الرغبة في الاختفاء

فرسان ثلاثة يمتطون صهوات جياد أصيلة و....يتقدّمون.....أنا واحد منهم ...دورية من ثلاثة خيالّة كنّا، لم يكن أمراً نادراً أن تكون هذه الكوكبة الصغيرة بأمرتي.. تحت وطأة كثير من الأمور الطارئة نرزح .. يومان انتهيا.. نزلت برفيقيّ نحو السهل المشرق، فتشّنا مخفرين على الطريق .. تابعنا رحلتنا على خاصرة الجبل، نجتاز البراري المزهرة، والهضاب الحالمة.. وفي كلّ مخفر نمرّ فيه نُستقبل كما في المرّة الأولى ...حفلة صغيرة، ومزمار، وأصوات عالية وسط ثغاء الماعز المربوطة، وجلبة ديكة، وقد سُحِبَ واحدٌ منها، ليقفز أمامنا. ويرقص رقصته الأخيرة، والدمُ يشخب من عنقه الوردية، وجناحاه القويّان يضربان بقوّة، ويدفّان فوق التراب، يثيران زوبعة صغيرة قبل أن ي ستسلم لقدره.. يعقبه الصّمتُ اللاّهث للكلابِ الشاردة، ...أجواء ألفناها ونحن نتلقّى ترحيب الأصدقاءَ القدامى، الذين تبعثروا في

المخافر البغالون وحدَهم يتجنّبون لقاءنا، يُفسحون الدروبَ لنا، يحسبون أنّنا من دوريات مكافحة تهريب البضائع..

أضحك في أعماقي وأمضي برفيقيّ المكدودين في مهمّتنا... كانا يصغراني بأعوام، يخبّان إلى جانبي بتأفّف، أحدهما صامت والآخر ثرثار ... كان على الرغم من نحوله سمين الخدين، ترك شاربيه ينموان بغزارة، ربّما لأنه يستمد منهما هيبة غير منظورة، يدخّن في شراهة، ويثرثر، لاشيء يوقفه عن الثرثرة، لا صم تي ولا سكوت رفيقه، حتى لو لم يسمعه أحد.

الرؤية لا تزال واضحة، والليل لم يجثم بعد .. منتصف الشهر القمري، والسفر فوق الخيل متعة، الأرض تنقلب في ضوء القمر البعيد إلى فضّة منثورة .. ونحن نتهادى فوق جيادنا كفرسان حقيقيين ساعة الغروب...

لم يَبْدُ المخفر القادم كما توقّعت ... كأنما انزاح عن رقعة الأرض، والدروبُ بدأتْ تأخذنا على هواها .. ورفيقي ذو الشاربين يعلّق على كلّ شيء تقع عليه عينُه بمرارة. والآخر صامتٌ كقبر . ونحن نواجه الليل طول المسافة.. بدأنا نتخبّط على الطريق الترابي . الأرض من حولنا صارت داكنة، والظلام بدأ يط بق برواقه على الرغم من ضوء القمر الذي مدّ لنا الدروب، وأضاءَ مِنْ حولنا معالم الأشياء.

مَن الذي ينطلق في ليل بدا نهاره شاحباً معتكراً.. كنّا نحسّ بعد كلّ حركة في هذا الليل بالخطر .. شاع فينا اليأس إلى درجة أنّ رفيقي وهو أكثرنا تفاؤلاً ارتجف..

الريح الباردة دهمتنا .. ريح عاصفة تضرب من كلّ الجهات.. وأنا رئيس الدورية أخبّ مع هذين في منطقة ضائعة الحدود .. بين التلال المتقاربة، بحثاً عن مخفر ضائع.. عن قرية في حدود جولتنا المشؤومة..

بدأنا نوغل في الأرض المقفرة، لا أشجار في طريقنا...لا زرع ولا أسيجة .. خيولُنا تلهث بوداً وتعباً، تحمحم بنزق، وتخبّ بتثاقل .. وصديقي يزمجر ويحتج، ويرفع شتائمه إلى السماء .. يعلن سلك الدّرك، والوظيفة، يلعن المخافر، ومَنْ فيها، وأوّلَ مَنْ فكّر بإنشائها، لماذا لا يعيش الناس بسلام، وما جدوى الحدود والمخافر والشرطة والدّرك.. لو كانت هناك قرية قريبة..

.. ريح الشرق الباردة ساطتنا، هذه المرة، بقسوة .. صفعت وجوهنا، دارت حولنا، ريح صافرة، تهبّ... تعبر التلال.. لا تجدُ مَنْ يوقفها .. تهوّم نحونا، نحسّ أنها تريد أن تنخر عظامنا...ونحن نمضي تائهين بلا هدف..

من بعيد، وسط الأرض المقفرة المترامية، لاح لنا بيت وحيد، مُتهدّم- ليس من البيوت الكبيرة، لكنّ بوّابته

تشي بمعالم وجاهة آفلة .. ومن ورائها تحت ضوءِ القمر برزت ثلاثة جِمال ضخمة في لون الرمال.. هتفتُ:

– هذا بيت!..

أدار صاحباي بصرهما، نطق النحيل محتجّاً:

– هه.. بيت مهدّم .. أتريد أن يسقط فوقنا .. أهذا مامُنينا به يا رئيس الدورية.؟!.

– لن نقترب.. دعْنا نتابعْ!

لوينا أعناق خيولنا، واتجهنا في طريق ترابي مبتعدين عن البيت.

لم نكد نفعل ذلك حتى لمحنا شبح امرأة، تخرجُ من البوّابة وهي تسوّي منديلَها فوق رأسها..

– يالْدولة.. يالْدولة!!

لم نشأ أن نتوقّف . أو أننا تظاهرنا بأن ا لنّداء ليس لّنا.. لا يعنينا..

– يالْدولة.. يالدْولة..

اكتسبَ الصوتُ رنيناً شجياً، طار إلينا معاتباً . معلناً اتّهامه.. ولم نتوقف .. كأنما أردنا أن نبتعد إمعاناً في تجاهلنا. إمعاناً في إظهار خيبتنا وشقائنا الأزليّ، ولهثنا وراء السراب، بيد أننا أمام الصوت الدافئ .. والبحّة الأسيانة، وركضها نحونا، لم نجد بُداً من الوقوف..

بدأت أفراسنا تصهل صهيلاً متقطّعاً، انتصبت آذانها الصّغيرة ترهف السمع إلى خطوات المرأة الملهوفة التي تجري وراءنا.. وهي ما تزال تهتف:

- يالْدولة.. لماذا تتجاهلون البيت، وتمرّون مبتعدين؟!.

دنت المرأة أكثر، صارت أمامنا .. تقهقر فرسي خطوتين، بينما أمسكت يدها باللجام، بدا لي أنّها صبيّة؛ بزغت كالحلم... بدت وقفتها وهي ممسكة باللجام فريدة..

- ولكن أين رجل البيت؟..

تجاهلتِ السؤال، نظرتْ بكبرياء إلى رفيقي الذي سأل، أقبلت عليّ، كأنها أدركتْ بغريزتها أنّني رئيس الدورية..

- إنه في المنطقة..

وأشارت إشارة مبهمة..

قلتُ:

- نحن في مهمّة:

ردّت بثقة:

- لا يمنع أن تنزلوا بيتنا.. هذا البيت لا يسمح لأحد أن يمرّ دون أن يقوم بواجب الضيافة!..

تسمّرت أمامي، دون أن تنبس ببنت شفة .. راقت

الفكرةُ لرفيقيّ.. تململا.. وهمسّ النحيلُ من تحت شاربيه الغليظين..

- لابأس.

رفعْتُ نظري إليها، أيّ صبيّة هذه؟ صورة حلوة في أرضية غير مناسبة، والقمر الصغير يُطِلُّ من عليائه فوق رؤوسنا، ونحن نسبح في إطار انفعالات مخبوءة..

قلتُ بحزم:

- لا مجال الآن.. نشكرك..

لكنها لم تتحرّك من مكانها .. حتى خيولنا حبست أنفاسها، والصبية بدل أن تتراجع تقدّمت مصوّبةً نظرة ثابتة نحوي، توقّفتُ مأخوذاً، والنّحيل يستحثّني ثم تركتُ اللّجام جانباً، فجذبَتْهُ إليها، وسرنا، .. كأنّما قوة خفيّة تجذبنا، ونحن منوّمون.. أيّة قوّة تملكها هذه الصبية، لكنّ الرغبةَ هي الأقوى، ولا شيء يمكن أنْ يوقفَها..

أمام البوابة ترجّلنا، أخذتْ بخيولنا جانبَ البيت، زوّدت المعالف بسخاء . وفي المضافة جلسنا، ونور المصباح يسطع فوق حشيّات ناعمة من جلود الأغنام، تهالكت أجسادُنا المكدودة، النار بدأت تشيع دفئاً فينا.

ورائحة القهوة عبقت تُشعر بالأمان، وعيوننا تتأمّل الجدارَ الكلسيّ تتراقصُ فوقَه أخيلتُنا .. لمحتُ فوقَه خنجرين وسيفاً بغمده .. قَوَيت النارُ أكثر .. تابعتْ أعيُننا

بإيقاعٍ مرح تنقّلَ الصبيّة مِنَ المضافة إلى الفِناء وهي تهيءّ الطعام،.. تصرّفَتْ على سجيّتها،...

شعرُها تحتَ منديلها الأرجواني طويل، أحاط ب وجهٍ حنطيّ اكتسى بلون الورد، وقد لفّ قوامَها الممشوقَ ثوبٌ أزرق، زهراءُ بَدَت... ناعمة.. ذات رموشٍ حالمة تنتزعُ التنهّدات مِنَ الحجارة، مِشيتُها الوحشية جميلةً وجامحة كفرسِ السّباق؛ شعرنا بالهدوء والراحة والدفء .. سمعنا صهيلَ خيولنا علامة الفرح والعرفان..

لم تترك الصبيّة فرصةً لنا لنسأل .. بل كانت تحدّثنا بطلاقة وترحيب.. مِنْ تحت الأغطية سحبتْ كيساً مملوءاً بالتّبغ، قدّمتُه..

- تفضّلوا.. يا هَلا.. دخّنوا..

كان رفيقي الناحلُ ينظر ببلاهة . انتابه تَوْقٌ مرضيّ إلى أن يفعل شيئاً .. مدّ يده إلى الكيس وعيناه معلّقتان بوجهها، كان ينهلُ مِنْ تقاطعيه الحلوة وشارباه يرقصان.. لا مفرّ من ذلك، رائحة الليل محمّلَة بالخدر اللّذيذ، والنّعاس، والحبّ، والأحلام .. أحسستُ ذلك المساء، أن قلبه سيرتكب، وبوعي كاملٍ جنوناً أخيراً، دفعتُ كفّي إليه أنبّه.. الحياة الخاصة خِلافاً لكلّ شيء متقلّبة ومليئة بالمفاجآت.. بدا أنّه متحررٌ مِنْ كلّ سراب . كان يحلُم. مثلنا.. لكنّه كانَ يحلُم، بجنون .. بدا لي أنّه ليس نحيلاً ومحزوناً فقط، بل بائس .. وثقيل الظلّ وهو يداعب

شاربيه المرتجفين.. غدتْ وجوهُنا متأثرةً بجوّ الليل الذي صار دافئاً.. وهادئاً.. ومتألّقاً..

أسرعت إلى طحين في كيس مسنود إلى الجدار، وما إن قويت النارُ أكثر حتى صار العجين جاهزاً .. ساحرة ووحيدة، تروح وتجيء أمامنا. قدّمت لنا كلَّ ما عندها من طعام، وأحسسْتُ أنّني بعد قليل سأختنقُ لفرط سعادتي فقد جاءت الأرغفة الطازجة الشهيّة، ورفيقاي أقبلا على الطعام في شراهة ... النّاحل فكّ حزامه الجلدي وتركه جانباً، اكتفى بعدئذٍ فمسَح بِكُمٍّ سترته فمّه، وبدأ يدخّن وهو ينظر إليها... هَمَس:

- ألم ترها جيداً..

تناقلت أنظارُنا همساتٍ سرّيةً، الخَدَرُ اقتنصَ أعضاءنا، وتوسّدها .. الخدر اللذيذ يسري فينا .. لمرأى النّار والصّبية ورائحة القهوة، ودخان التبغ، أُخِذَ ذو الشاربين بمرآها وتوهّجها.. لكَزني.

- انظرْ يا رئيسَنا.. أنت أعمى.. أية ضيافة هذه!.

قدمتْ لنا الوسائد والمساند.. هيأتْ فِراشاً لكلٍّ منّا...

لكَزني ثانيةً وهمَس:

- نريد ضيافة من نوع آخر..

- مه.. أيها المجنون..

رأيت نفسي عاجزاً، يحدوني الغضب، وكأنما أدرك فداحة ما نطق.

ابتسم في وجهي معتذراً . لكنّ الصبية وقفتْ تسأل وفي عينيها هدوءً وسكينة آسرة:

- هلْ مِنْ خدمة، أؤديّها قبل أن أترككم؟..

كان رفيقي على ذهوله. والليلُ خارجَ البيت ما يزال طويلاً...

تمتم:

- لسنا طمّاعين أبداً.. كم تساوي يا معلّمي.. مليون ليرة.. أكثر.. طظ على المخافر.. والوظائف.. والدرك.. نظرة منها، لمسة تحيي ما مات من عظام، وما أصبح رميماً..

- اسكتْ يا أحمق!.

- عظامي تصلّ..

انطفأتْ في داخلي بروق.. كان الآخر قد أغفى قبلنا، والنحيل ما يزال مسلوباً.

أسيرَ غواية شرنقته الصبية فيها . أسيرَ الليل، والدفء، والعنين الهادئتين الواثقتين الحلوتين، والثوب الأزرق، والمنديل الأرجواني، والمشية الجامحة، والصّبا المشعّ، ورائحة الأرغفة، والبخور، والغابات، والصّندل،

والأبنوس، كلبٌ يلهث في أعماقه، وهو يسترخي إلى جانبي فوق فراشه.. ردّد هامساً كأنّه يُسمعني فقط:

- إذا اعتليتها، أمتطي صَهْوَة العالَم- أنا سيّد المخافر والدرك، سأصير سيّد البحار والقارات!!

هتفتُ مِنْ تحت اللحاف:

- اخرس سأسحق غداً رأسك بالحذاء!

- أريدها يا معلمي!

- اخرسْ.. أخفض صوتَك، تريد أن تفضحَنا يا منكود..

لقد نال التعب منّي . أخذني النوم.. بعد أن وضعت رأسي على الوسادة الناعمة، أصغيت إلى صهيل الجياد الشبعى.. أصوات مبهمة جاءتني من بعيد لكنّني استسلمتُ للنوم. تلاشت مقاومتي له .. فاضت نفسي بالمحبة والعرفان لهذا البيت الآمن وسط الأرض المقفرة .. كنت أذوب في الحلم .. وكان صديقي الناحل على بعد ذراع منّي نائماً .. غابت الوجوه من حولي، انسحبت بعيداً وتراجعت.. امتدّت الحقول أمامي، انحسرت خلف الجبال، جاءت طيورٌ كنقاط الماء. بسطْت أجنحتها البيضاء فوقي، حلّقت في فضاء لا حدود له، غرقتُ في بياض ناعم رقيق.. خِلْتُ أنّني فوق أرض غير هذه الأرض، رحت أتساءل بحزن عَنْ سبب وجودي دون أن أتذكّر أنني

أبحث عن مخفر تال، مع رفيقين هائمين خلفي على الدروب الطويلة، بداً لي أنني أعود من مكان غاية في البعد، ومن غياهب الزمن، ثمّ.. تنبهّت إلى المكان الذي لا يزال غارقاً في الظلام .. انتهى بي الحال للتفكير عمّ ا كان، أستيقظ فجأة بسبب إحساس جسديّ أنني أتأمل في العتمة وأنا نائم .. بعد ذلك، بعد أن سمعت وقع خطواتٍ عازمة على بساط المضافة، بذلت جهداً لأصدّق أنّ الأمر ليس لعبة جديدة من ألاعيب الخيال .. ربّما كنت ما أزال أحلم.. ربّما كنت ما أزال مستيقظاً، ربّما كنتُ .واهماً، كم مضى من الوقت، لست أدري، استسلامُنا إلى النوم ألغى من ذاكرتنا الزمن . لكنّ روعة الفجر تكاد تبدأ بالتسلّل عبر الطّاقة العالية، لتضيء المضافة الهادئة، بدا الضوءُ كافياً لملاحظة أنني تغلّبت أخيراً على النوم .. وحاولت التملّص بسلوك درب الحقيقة، بدا الصباح في الأعالي.. بانت صفحة السماء صافية الأديم.. مشرقة، ونور الشمس يتسلّل بنعومة إلى مرقدنا .. وما إن فتحتُ عينَيّ حتى وجدت صديقي ليس في مكانه .. خِلْتُ أنني أعرف ذلك من قبل.. خلت أنني تَيَقّظت في هدأة الليل على صوت .. صرخة.. لكنّ ذلك لم يدمْ طويلاً .. ربما كنت ما أزال واهماً.. لكنّ الناحل وحدَه لم يكن في فراشه !.. وما إن نهضتُ حتى رأيت الصبية أمامي ولأول مرة التقيتها في نور الصباح.. ولما تأمّلْت وجهها الجميل الهادئ، رغم

جمود ملامحه، أحسست برعشة، سَرَتْ في كياني كلّه .. لم أستطع أنْ أرفع عينَيّ إليها عبر سُحُبِ أساي .. كان رفيقي الآخر ينتظر أمام البوّابة .. وفرسي تنتظر .. قالتْ بصوتٍ حيادي:

– سبقكم النحيل، فلا تنتظروه!.

ومدّت يدَها ببندقية..

– لكنّه نسي هذه..

واسودّ وجهي وأنا أستلمها .. ولم أجرؤ أن أفتح فمي بكلمة.. كانت لديّ رغبة في الاختفاء مع رفيقي الذي جمد كتمثال..

❒❖❒

السّنديانة

بدا الحزن على الوجه البدريّ متعاظماً .. بدا الألم الدفين كبيراً .. لكنّها كانت تداري وتكابر ... رسمت ابتسامة شاحبة على شفتيها الرقيقتين. وهمست بمودّة:

– أهلاً...

انسحب الحزن على جلستنا، خيّمت الكآبة ... لم يكن هناك مناص من المكاشفة..

جلست أمامي، وقد أرخت كفّيها في حضنها .شعرتُ بنوع من الحرج.. خمسة عشر يوماً يا آدمي وأنت غائب عنها... ها هي ذي ماثلة أمام عينيك . فتأمّلْ .. تأمّلْ وجهها النوراني الذي نهلت من عذوبته حتى الارتواء .. تأمّلْ انحناءتها نحوك. تأمّلْ شعرها الذي بدأ ينحسر عن فروة الرأس .. سحبت منديلها الأزرق، غطّت هامتها، عقدت تحت ذقنها عقدة، وأسلمت كفّيها من جديد إلى حضنها، كانت الحركة غير عادية، نظرتُ باستنكار:

– ما معنى هذا؟.

– لا شيء.

– كيف؟.

همسَتْ:

– هكذا أفضل!..

– لم أفهم..

– أقول: هكذا أفضل..

سكتُّ ولم أقتنع .. كانت أمامي بكلّ حزنها وألمها وإحساسها العبثي بلا جدوى أن تستمرّ الحياة .. لقد شارفت على الثمانين، ومع ذلك فحيويتها، خطواتها، أحاديثها، مرحها .. كانت أعجوبة . إذا ابتدأت حكايتها سحرت الموجودين، نقلتهم إلى دنيا غير دنياهم، سرحت بهم في أراضٍ ما سمعوا بها، شردت معهم إلى الماضي، وأشرفت على المستقبل.

كنت حزيناً لحزنها، ولكنني لم أنتبه إلى مقدّماتها نهضتْ تفتح النافذة، فدفعتُ الباب ورائي لأسمح لأكبر قسط من الهواء بالدخول ...اصطرعت في داخلي أشياء مبهمة وأنا أرنو إلى ثوبها الأزرق المنمنم بنقاط بيض، وقد انسحب على قامتها، لاحظتُ توانياً في حركاتها، ثم عادت إلى جلستها.

وحين طرحت سؤالي:

- لماذا زرت أختي، وأقمت يومين؟

انفجر حزنها صامتاً، ورأيت دمعتين تتعثران في عينيها، انتقلت العدوى إليّ. فطفقت أبكي بصمت مثلها .. قالت:

- تصورّ... استيقظتْ هذا الصّباح . وهي تنوح . كأنها في يوم فَقْدِ زوجها ....ولما سألتُها زاد نواحها، لقد كانت تحلم .. الباب مفتوح وهو واقف بقنبازه الأبيض . وحطّته البيضاء ووجهه الخمري .. كان في صحّة جيّدة كعهد هابه. قالت:

- أنت!

- نعم.. أتيت لأخذك معي

وأشار إلى حصان أبيض وراءه. قالت:

- وهل سيحملني معك؟

- بلى...ولن أتركك أبداً!

قالت:

- دعني ألملم حوائجي..

قال:

-اتركي كلّ شيء وهلمّي الآن ... لم أعد أستطيع صبراً.. هيّا.. ونهضت إليه .. فأردفني وراءه، وطار

الحصان الأبيض دون أن يكون له جناحانِ .. طار.. وطرت يا أمّي .. أريد أن أذهب إليه فعلاً، ما حياتي من بعده، وما معنى أن أستمرّ .. أنت ترين الأولاد .. لا أحد ينفع ولا أحد يهتّم.. لقد ضعت يا أمّي.!

وتنامى بكاؤنا.. حتى لم أعد أستطيع دفعاً لدموعي، كان الحزن أكبر من كلّ شيء .. وكان البكاء قد أخذ بنا، هي تبكي وأنا أبكي . وانداح في الحجرة التعيسة لحن كئيب.. قالت:

– معذرة، لا أريد أن أزيد أكثر

قلت:

– يا أمّي، أنت تعرفين..

هزّت رأسها:

– فعلاً، أنا أعرف .. الجيران زاروها، فسمعت أمّ حسن بأنّ البرغل قد نفد، ولم تمضِ ساعة حتى كانت تنكتا برغل في باحة الدار ...يا ابني أختك تعيش على الصدقات، وأنا أعرف أنّه ليس باستطاعتك أن تصنع شيئاً.. الموظّف لا يقدر على شيء .. الموظّف وضعه تعيس، أنا أعرف، وأنا ليس بيدي حيلة، لكنّني لا أستطيع تركها، هل عرفت لماذا زرتها؟ ولماذا تغيّبت عندها؟!.

أحنيْتُ رأسي، وساد الصّمت بيننا، الأمور ليست على ما يرام، الأمور تسير نحو الأسوأ دائماً، كلّ شيء

يعاندني.. يعاندنا.. وهذه الأسرة الممزّقة بدأت رحلتها الحزينة منذ دهور . ولا تزال رحلتها ماضية في الطريق ذاته...لا أفراح ولا مسرّات، لا محطّات استراحة، ولا مواقف للفرح .. الحزن يسدّ المنافذ والطّرقات .. الحزن يتعاظم، وأمّي شجرة السنديان، لم تعد تبالي بعبث الأيام، ولا زعزعة الريح، إنّها تهزأ بكلّ شيء .. ، ربتّنا .. وسارت بنا في دروب الحياة، وها هي ذي تشهد همومنا وآلامنا، والابتسامة على شفتيها، إنّه قدرنا بالفعل أن تكون أختي كذلك، أرملة صغيرة ووحيدة، وأن يكون أخي على هذه الصّورة المترديّة، يبدو أنّ الفقر يورّث .. وهل هناك من مهرب!!..

بدت أمي مستسلمة، راضية بما قًسِمَ لنا ج ميعاً. أرادت أن تغيّر الحديث، فانطلقت تحكي عن الصّغار الذين تعلّقوا بعمل المطبعة، وعن الطفلة "هيا" التي التحقت بدورة خياطة، الحياة لم تزل تجري على طريقتها المعهودة. الحياة ليست ضيّقة كما نتخيّل، إنها عريضة، تتّسع لمزيد من الكآبة والحزن، لمزيد من الابتسامات أيضاً...

ورسمت أمي ابتسامتها الحلوة..

استدار وجهها الشمعي الأبيض، وشفّ عن روح آمنة هادئة . نسيت غضبها وحزنها وألمها .. دفنت كلّ شيء، ورسمت ابتسامتها المشرقة...

نهضت وقالت:

فنجان قهوة.. سيغيّر مزاجنا. أليس كذلك!

هززْت رأسي موافقاً..

لكنّها قبل أن توقد "الغاز" وتضع ركوة القهوة، أحضرت حزّي بِطّيخ، وأحضرت شوكة. وقالت:

– بردْ قلبك. قبل أن تشرب القهوة..

لقهوتها طقوس مميّزة، تركتها على النّار الهادئة، والتفتت إليّ تريد أن تزيح آخر سحب الحزن من فضائنا.. بدت هذه المرّة أ روع ما تكون عليه الأمّ .. اقتربت منّي. وضعت كفّها الدافئة على كتفي. وانحنت تقبّل رأسي..

– الله يرضى عليك، لا تترك الأيام تغلبك .. اغلبْها أنت..

صارت القهوة جاهزة، صبّتها في فنجانين.

قدّمت لي واحداً .. وجلست أمامي، أرخت كفّها باستسلام. ولم أسمع سوى صوت ارتشافنا..

وهبّت نسمات ناعمة، حركت سجف سريرها الورديّ.. وابتسمت.. بهدوء، أضاءت ابتسامتها المكان..

❒❖❒

الواحة

حطّت الحافلة في الموقف، موقف ساحة العاصي، شعرت أنّني ملكْتُ الدنيا، فقد انحصر همّي في أن آخذ طريقي إلى البيت بسرعة . بعد أن أضناني التعب، وأخذ بي السغب ! فتدريس ست حصص متّصلة ليس سهلاً، ولساني لم يفتر عن التشدّق بقضايا النحو والصرف، ومسائل الخلاف، وفي القضية وجهان، وذلك هو الإنصاف !..

جذبتني الكتلة المتزاحمة داخل الحافلة، لم يكن هناك مجال لموضع قدم، حتى الأيدي امتدّت من النوافذ، زحام غير عادي، وهذا أنا في الحافلة، يلفّني مع الجموع صمت غير مألوف .. أمسك بطرف مقعد وأتطلّع حولي ..

لم يعرني أحد التفاته .. حتى السائق الذي أعرفه طالعني بوجه حيادي، أو ربّما لم ينتبه إليّ ..

الأنظار كلّها غير آبهة، بِمَنْ صعد الحافلة أو نزل منها، شباب ببنطلونات الجينز شاردون، عمال مفتولو العضلات بثياب العمل الزرقاء مبهوتون، طالبات صغيرات بمراييل المعاهد، لوين أعناقهن بصمت، مهندمات بربطات عنق ملوّنة ومضحكة قوّسن حواجبهنّ وفتحن عيونهن على اتّساعها ...صغار بسراويل ضيقة وعصرية، فوقها كنزات مقلّمة، واسعة الصّدر تكشف عن وجوه محتارة، وعيون مفعمة بالدهشة، أناس بأردية ملوّثة بالهباب وال سخام تعلّقوا بسقف الحافلة وهم يمدّون أنظارهم بجسارة . كلّهم شغلوا المقاعد والممرّ . كلّهم ارتصّوا، ككتلةٍ متلاحمة، بدت نظراتهم تائهة تماماً، لا مشتّتة بل غامضة، التقت في اتجاه واحد .. أخذت مساراً محدّداً، لم يكن أحد ينظر إلى أحد ...

السائق الذي أعرفه منطلق إلى غايته، يكمل دورته في المدينة الصّغيرة، غير آبه بشيء، إلاّ من نظرة حانية يمدّها بين الفينة والفينة، لتلتقي مع أنظار ركابه في نقطة !.

نقطة بدت لي بهيجة مشعّة؛ عنصر نوراني . طالعني فجأة من ظلمة المكان وكدره، توهّج أمام عيني، فجذبني تجاهه أو أنّني انجذبت إليه ..

أيّ نور آسر أشرق في الحافلة؟ !.أيّ جاذبيّة خفيّة كانت ترفّ في استحياء وخفر ! في هذه المركبة الغارقة في بحر الصّمت الخصيب؟ !

كانت هناك في كرسيّها، لمحت جانب وجهها النقيّ النّاعم، خيّل إليّ أنّني لم أر في حياتي وجهاً يشبهه، تجلّى في رونق الصّبا . وشعّ بابتسامة رقيقة هادئة، وطاف في العينين حلم طاغٍ ...

لم يكن وجه صبيّة، إنّما هو وجه السعادة نفسها !..

وبأسرع من وميض البرق . داهمني الوله، وأخذني الانشداه ....في لحظة خاطفة، شعرتُ بالغبطة، لأنني مع هؤلاء جميعاً في تقاربهم ووجودهم وحضورهم الحميمي ...

بدا لي أنّ روحاً جديدة تلبّستهم ...ملء أنفسهم شعور مبهم، لكنّه ينطوي على كلّ شيء .. كلّ شيء .. فهو الحزن وهو الفرح، هو الرغبة في الحياة، وهو الرهبة منها ..

أطبقت من حولهم رؤى محلّقة، والعيون تسيّج وجه السعادة، النظرات تحدق به ..

أيّ وجه، وأيّ عينين، واسعتين باهرتين، ها هنا منبع الضيّاء، ها هنا منسكب النّور .. سحر خاص، روح شفيفة، بريق متوهّج، والنظرات تلتحم من أجلها، تتوحّد، تتعانق بالمحبّة والسلام ...

توقّفت الحافلة ..

نزل أناس وهم كارهون، صعد آخرون ليدخلوا مدار الغبطة . تباشير سرور، تلويحات فرح، ارتسمت على الوجوه المكدودة الساغبة، اللا هفة، النازفة، الراعفة ... ما الذي يدور في كلّ رأس؟ .. ما الذي يصطرع في كلّ صدر؟ ما الذي يخفق به في كلّ قلب؟..

هيهات، هيهات لما يقارنون .. بين نسائهم وزوجاتهم، وما يرون .. مع أحلامهم طاروا، أجنحتهم رفرفت في سماء لا تُرى، نحنحات ابتلعت، وبريقهم بدأوا يجرضون .. لم يفصح واحد عن مبهماته، والوجه الملائكي يتراءى لهم كالبشارة، يغسل أوصاب العمر، يزيح ليالي القهر، يخفّف أغلال النكد والذلّ، والأرق والتعب والعذاب ..

الواحة ظليلة وهم يتفيأون، راحةً وأماناً

يلتمسون، وعلى أعتابها تضجّ قلوبهم، وتتوحّد أحلامهم، تراءت أمنيات لا نه اية لها، ولا هدف .. شعروا أنّهم سعداء، ولكنْ ممّ هذه السعادة؟ !.

لم يكن أحد راغباً في شيء، ولا مفكراً في شيء.. كانوا سعداء وكفى .. اشتعلت أرواحهم جملة .. انداحت موسيقى خفيفة مسكرة، لم يسمعوا بها من قبل، لانت نظراتهم المتجهّمة، استسلمت أوجاعهم لخدر لذيذ، استنامت أكفّهم المعروقة، استراحت أحزانهم استراحة المحارب، وضعوا أسلحتهم المشهرة، قلّموا أظافرهم المستطيلة، رفعوا راياتهم البيضاء...

مطر ربيعي ناعم، غسل نفوسهم المقهورة، أزال ماران على قلوبهم الموجوعة .. فراشات ملوّنة طارت من كلّ صوب، ابتسامات مبهمة ارتسمت، دوائر من متعة اتّسعت، حنان دافئ احتوى أرواحهم .. عند أول منعطف توقّفت الحافلة ...

نهضت الصّبية، نهضت معها عيوننا، بدت قسماتها هذه المرّة أشدّ سناء وبهاء ..

لم يتحرّك أحد من موضعه، ليفسح الطريق ..

نظرات في أعيننا مباشرة، نظرة فيها كلّ الثقة والابتهال والعرفان . وفي لحظة ...لمرأى وجهها

الآسر، تزحزح كلّ مَن في الممرّ .. لانت الكتلة المزدحمة دفعة واحدة .. ذابت حناناً ورقّة .. وبهدوء.. نزلت.. وابتعدت..

هبطت الرؤى من عليائها .. تبعثرت الأطياف . تشرّدت النّظرات، لملم الراكبون هواجسهم وأحلامهم.. لملموا أنفسهم ... جمعوا أشتاتهم الم بددّة.. عاد كلّ شيء إلى رتابته ومَلله .. إلى تجهّمه وقسوته... إلى تحدّيه وصراعه .. وانكفأ الجميع يواجهون خيباتهم المقبلة ..

❑❖❑

صورة المشتاق

تعالوا.. اقتربوا منّي.. هذا أنا.. اُنظروا إليّ تفرّسوا في وجهي؛ حدّقوا في عينيّ، هل هناك علامات فارقة؟ ! ألست واحداً منكم؟! تأمّلوني جيّداً، سامحكم اللّه، أو عليكم اللّعنة: تودّون أن تجدوا ما يميزّني عنكم، لتكون لكم ذريعة في تصفية دمي، أو إبادتي، أو سحقي بالطريقة التي تحبّون!!!

مهلاً، فأنا لست كما تتصورون، ولن أكون تسلية سهلة لأهدافكم؛ بوسعي أن أحلم، حتى لو سرقتم ك لّ أحلامي، أعرف أنّه يزعجكم وقوفي مرفوع الرأس، متشبّثاً بحفنة من تراب، عنيداً، أعرف أنكم تؤيّدون منْ وضع على وجهي قناعاً قبيحاً من صنعهم، واتّهموني بأنّني خارج على الأعراف والقوانين الوضعية.

وأنني مُ..... خـــ..... رّ..... ب، فهل أنا كذلك؟!..

انظروا إليّ، ها أنذا أنحدر من جبل الزيتون، ها

ترون التماع السماء، بعد أمطار الربيع .. تقول فاطمة زوجتي، وهي تهدل بين يديّ:

- اُنظر، ما أجمل الربيع في القدس!..

على سبعة تلال نهضت مدينتي الصّخرية، كنت أرتقي كالماعز، أرتقي كلّ ما فيها من تلال، أهبط كلّ مافيها من منحدرات . بيوت من حجر أبيض . بيوت من حجر ورديّ، بيوت من حجر أحمر، بيوت كالقلاع تعلو وتنخفض مع الطرق الصّاعدة النّازلة. بيوت كأنّها جواهر منثورة على ثوب أزرق، القدس كلّها صخور، فلسطين نفسها صخرة، صلدة، عميقة الجذور، تتّصل بمركز الأرض. في الليالي المقمرة ترون رؤوس الرجال وأكتافهم ناتئة من حفرها. وإذا هي.. صخر..

ها أنذا أنحدر إلى بوّابة الخليل، أقطع الطّريق مارّاً بمشفى المقاصد الخيرية، يستقبلني بائع الكعك كلّ صباح..

- السلام عليكم..

- وعليكم السّلام. أهلاً بالأستاذ حسين

يعرج أمامي حاملاً حلقاته السمسمية، ينادي بصوت مبحوح:

- الكعك، طازج، الكعك..

أشتري واحدة عابقة بالزعتر، أمضي خلال طرقات

مسقوفة أو مكشوفة، المدرسة ليست بعيدة، وتيارات من الرجال بحطّات وقنابيز، والنساء، بأثواب مزركشة، والعربات أمام الدكاكين، وباعة الحلوى والزيت والزيتون وأطباق القش، وقرويات يرفعن أصواتهن، يبعن الفجل والبندورة والتين المجفّف والزبيب وإشارات ونبرات غير مسموعة، وعواطف جيّاشة، وابتسامات وضحكات وزجرات ومساومات لا تنتهي، و .. أطفال يستقبلونني أمام باب المدرسة، يبسبسون:

– أستاذنا.. أستاذنا.. حسين

أنا قائد هذا القطيع . أفرش لهم اهتمامي ومودّتي . وبوابات القدس القديمة مشرعة. بوابة"العمود" تفضي إلى بوابة"المغاربة". دروب مفتوحة وأناس يتدفّقون من الحارات الضيّقة، البلاطات الحجرية تشتعل تحت وقع الأقدام الصّغيرة، والتلاميذ الصّغار يتأبّطون حقائبهم ويركضون، عجوز ينهمك في لفّ كوفيّته حول عنقه وهو يجتاز بولده الطّريق، طفل دامع العينين مسحوب من ذراعه خلف امرأة مسرعة، تتداح أصوات مبهمة، تندغم في المدى الأخضر الشفيف الذي يزنّر المدينة البيضاء، والطرقات.. كلّ الطرقات مفتوحة للشمس..

كنّا نفتح صدورنا للهواء البارد. كنّا نركض من جبل الطّور إلى جبل المكبّر، نلهث من الفرح، صباحاً ومساءً. ونحن لا ننام من شدّة الهيام، أقسم، أننا لم نكن ننام .

فاطمة بوجهها المقدسيّ كوردة بعد المطر، وجوه بنات القدس كلّهن كالورود، كالورود بعد رشّات المطر، فاطمة بلمسات كفيّها الحانيتين تحيل بيتنا إلى جنّة صغيرة، يرتفع الأذان من المسجد الأقصى ... اللـــ .... ـــه أكبر، حلوة، طويلة، شجيّة، مباركة، تهمس فاطمة، تخاطب الكائنات جميعها، كلاً بلغته الخاصة، تخاطب الله في سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء في أضرحتهم، حتى الجنّ والطّير والجماد والموتى.. تنهداتها تجيء، لا فرق في ذلك بين مَلا ك وباب ضريح، بين الهدهد وبوابات القدس القديمة. أحلامنا تنهمر كالمطر. تشتعل عيوننا بالحبّ. وتنبت لنا أجنحة. ونحن نحلّق إلى جبل المشارف، نجتاز تلالاً. نعبر أودية. نقطع جدولاً، أو نتراشق بماء ساقية، فمن سرق قمرنا...وكسر قلوبنا؟! ما الذي بدّل مدينتنا. وجعلنا نهجر السّمر فوق مصاطبنا الحجرية؟ لماذا تغيرت الدروب؟ ولم تعد تأخذنا إلى منفسح الخضرة الشفيفة تحت ظلال الزيتون؟ لماذا حوّلت طريقها. وصارت تفضي إلى ذاتها، بعد أن كانت مفتوحة لنا.. للريح.. للعصافير.. للشمس..

قرأت في عينيّ فاطمة حزناً و .. خوفاً، ارتجفت أطرافها الهشّة وهي تقول:

– ليس هناك أمان، الصّهاينة يداهمون البيوت!..

على واجهة دارنا مشربية من الخشب، مدهونة

باللون الأخضر . وفوق زخارفها المحفورة على هيئة قباب، وعلى هيئة مآذن ثقوب الرصاص!..

لقد أطلقوا النّار حين مرّوا من هنا .. لم أكن أفهم ما حدث تماماً، وما زلت لا أفهم، ولكنّه كان حقيقياً .. كما لم تكن أشياء كثيرة ممّا أظنّ، أنني أفهم، كيف ولماذا يحدث ذلك؟!

من باب الحرم المقدسيّ، رأيتهم، ماذا يريدون؟ تفرّق المصلّون، سكت الأذان، انطفأت شموس، طار اليمام بعيداً عن قبّة الصخرة ...تدفّقت جموعهم، أصوات تبرطم ضدّنا، صلوات يهودية، ثمّ تحولوا إلى ....الرقص، إنّهم يرقصون.. رقص وموسيقى، موسيقى ورقص، تتبارى راشيل ببنطلون الجينز مع ليزا بتنّورتها القصيرة، رقص حتى الجنون، ونحن مسمّرون .. دموع تحجّرت في مآقي الشيوخ، وهم يرون ما يرون!!

في المدرسة، شعرت أن أحداً ما سحق حروفي، وبدّد كلماتي، لم يخرج صوتي، والتّلاميذ ينظرون إليّ، وينظرون.. أيّ حصّة هذه؟ !. الحزن يغمر العالم ... اجتمع طلاّب المدارس كلّهم في فناء قبّة الصخرة .. خرج تلاميذ مدرستي إلى طرقات المدينة، تدافعوا أفواجاً، والسقوف المعقودة ترجّع هتافاتهم، الناس يغلقون دكاكينهم، ينضمّون إلى جموع التلاميذ،...

عند باب الخليل، وقف الجنود الإسرائيليون،

وشرطتهم.. سيل التلاميذ الهادر يتواصل دون انقطاع، طالب في الصّف الخامس ردّ بنزق خصلة شعره الفاحم، وهزّ قبضته في وجوههم:

- هيّا.. اقتلونا..

ردّد ذلك وهو يفتح سترته، ويزيح قميصه، معرّضاً صدره العاري، مرغماً الجنود على التّراجع، مرعباً إياهم بتحدّيه..

- أيّها الجبناء..

بم.. بم.. بم.. الجنود يطلقون، يهجمون على الأطفال، تنهال الحجارة والعصي.. حتى الأحذية تطايرت من كل صوب.. بم.. بم.. بم.. يلعلع الرصاص، .. بم.. بم.. بم.. تنفجر القذائف.. الهتافات تملأ الحناجر وقع أحد التلاميذ الصّغار، دمه يسيل إلى حذائه، يرسم فراشات حمراء فوق البلاطات الحجرية، حملوه على أكتافهم .. و.. انفجرت القدس .. كانت صدورهم مدرّعة بواقيات الرصاص، وصدورنا مشرعة مفتوحة للهواء .. والشمس.. و.. الرصاص..

....

....

فاطمة، أرجوك، لا تلوميني، إذا تأخّرت عن

موعدي، بي شوق إلى أن أعيد الفرح إلى عينيك الجميلتين، وأن أمسح الحزن عن وجهك المقدسي الغاضب، ماذا تنتظرين من المعلّم حسين؟..

سقط صاروخ إسرائيلي على مدرسته في وضح النّهار، قتل سبعة من تلاميذي الصّغار .. لم أستطع رؤية أجسادهم الصّغيرة الممزّقة وهم يخرجونها أشلاء من تحت الركام، ولا دفاترهم وأقلامهم المبعثرة، ولا عيون أهليهم النادبة، وهي تهتف بأسمائهم .. محمّد.. حسن.. علي.. حمزة.. سامي..

فاطمة، أرجوك، اعذريني إذا تأخرّت اللّيلة، لدي شغل، غير تعليم الصّبيان، المدارس كلّها معطّلة، والتلاميذ هائمون في طرقات القدس، وأنا على تلّ المشارف أو فوق جبل المكبّر أو عند سفح الطّور، أو في بوّابة الخليل، أنتظر الضابط مردخاي؛ هل أنسى كيف حدّق بي طويلاً . شفط دخان سيجارته وقلّب النّظر فيّ . كان عليه أن يقول شيئاً .. في عينيه الغائرتين شهد تُ رعباً، والكاب منزلق إلى الخلف فوق رأسه الأصلع، وجنوده يحيطون به، وهم يقتحمون المدرسة:

– أنت معلّم .. مُ.. خ.. رّ.. ب

بنيامين، واليعازر، وجاكوب، وروبنشتاين كلّهم يقتلون، نسفوا بيوتنا في قلب القدس، حرقوا المنبر والمحراب في الجامع الأقصى . قطعوا زيتون أهلنا .

بلدوزراتهم داست بياراتنا وكرومنا، نقبوا جدران قبّة الصّخرة بحثاً عن هيكل سليمان . هتكوا أسوارنا، عصابات الهاجاناه وشتيرن والأرجون روّعت أمننا، لست أدري لماذا يحيلون العالم إلى لون أحمر؟!.

ذبحوا مصلّينا في الحرم الإبراهيمي، ولم تسلم من أيديهم كتبنا ومصاحفنا.. ألقوا بها في النّار، وعبثوا بكلّ حرماتنا، تركونا ضائعين، مشتّتين، عاطلين عن العمل، لا مستقبل لنا..

حين يشتعل الغضب، وتلتهم ألسنته كلمات السماء، تُفتح أبواب غامضة، تتسلّل منها الشياطين، بل يجيء إبليس نفسه في موكبه النّاري، يحفّ به الجلاّدون والمستكبرون ورجال الشرطة ومردخاي وكوهين، ويزهار، والسجّانون، عندئذٍ سيغيّر كلّ واحد جلده، ويخفي اسمه ولقبه ويقول:

– شالوم.. شالوم

وتهتف المذيعة في الراديو بلكنة ملتوية..

– صوت أورشليم.. أورشليم

تعالوا إلى إسرائيل..

تعالوا إلى واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، هلمّوا إلى أرض الميعاد، إلى أرض اللبن والعسل..

بم.. بم.. بم.. هذه مدافع الفرح .. بم.. بم.. بم.. هذه

متفجّرات السلام والأمان .. بم.. بم.. بم..

فاطمة، معذرة، لا تلوميني. لم أعد إلاّ رجلاً محروماً من هذه المدينة الرؤوم، التي نسمّيها حبّاً وتحدّياً: القدس..

إنّي مطارد. أغادر تلّة الرضوان لأهيم على وجهي في الطرقات من مرجوش إلى سوق النحّاسين، إلى خان الحنّة، في كلّ مكان لي ذكرى ونجوى .. وفي المقاصد، وحيّ المغاربة، وفي ميدان الفاكهاني وباب الحديد يخفق قلبي.. وفي لحظة من الأسى ينطلق صوت المؤذّن يعانق أمواج الظلام..

مهلاً، فاطمة، ففي عروقي ينبض توق وحبّ واشتياق، في عروقي يضجّ مجد، .. خلفاء. وتخفق رايات، وفتوحات، وتكبيرات .. في صدري صوتك الهامس، وكلّ أصوات المستضعفين، ينهض نُبلي وكبريائي ويشتعل ضوئي..

صار بوسعي أن أُحدِّثكم عن الموت نفسه، فإني به خبير، إني من صناعه. الأحزان تنهمر كالمطر، وثورتي ستقلب نواميس الحياة، فانتظروا..

تعالوا، اقتربوا منّي، انظروا إليّ . هل عرفتموني جيّداً.. تأمّلوا صورتي، صورة المشتاق، سأخرج إليكم، حدّقوا في وجهي.. أ أنا مخرّب؟!

لن يقشعر الجلد، ولن تدمع العيون أو ترتجف

الأوصال، فأنا قادم إليكم، أقاوم أمنية أن أخترق الغيوم، أو أصلب عين الشمس، أو أجتاز المجرّات.

أنا إنسان مثلكم، فلماذا تجعلون مني دريئة لأهدافكم، لماذا تعملون على تصفية دمي . قطرة.. قطرة.. قطرة.. وتلهثون ورائي، سعياً لإبادتي!!

لقد تعلّمت لغة جديدة..

والليل مهما طال، سيزيح أستاره نور الصباح..

تعالوا.. اقتربوا أكثر .. أنا في لحظة وجد و .. اشتياق.. سأسمعكم لغتي الجديدة..

.. بم.. بم.. بم.. بم..

❒❖❒

زيارة فاطمة

طار قلبه فرحاً.. هل يصدّق أحد ذلك؟..

هي ذي الأماني تقترب، والحلم البعيد يمكن أن يتحقّق، والساعات القادمة تحمل بشرى.. أيّ بشرى!..

نقلت أمّة إليه الخبر، وقالت:

- تهيّأ للزيارة..

لكلّ شيء أوانه، وهذه الزيارة لم تكن متوقّعة .. لكنّه ينتظرها، منذ أشهر، وهو يترقّب.. قلبه ينبض بألف نداء، ونفسه قلقة، ولهفته لا يكاد يخفيها .. هل عرفت أمّه ذلك؟ هل انتبهت واحدة من أخواته..؟..

ولكنّ هذه الزيارة تهمّه وحده، ثمّ لماذا يخفي الحقيقة؟.. لماذا يخبّئ أشواقه المتعاظمة على نحو لم يألفه من قبل؟ حتى أمّه ربما تدرك بإحساسها الذي لا يخيب أنّه سيسرّ حقاً لهذه الزيارة.

وربّما أخواته أيضاً، وهنّ يعلقن شيئاً ما على نجاحها!! أو ليس هو الأخ الأكبر .. و.. الوحيد الذي يرفعن به رؤوسهنّ أمام الصّديقات والجيران؟ ! أو ليس

هو الأمل المرجوّ بالنسبة إليهنّ، كلّما خطر لهنّ خاطر، أو مرّ ببالهن شيء هامّ!.

هو وحده الذي يستطيع أ ن يدرك ذلك كلّه، فهو بأهوائه التي يحاول إخفاءها جاهداً، وبطبعه الوثّاب يدفع الآمال الصّاخبة في صدره إلى دنيا عريضة عريضة، مرسومة بالظّلال الجميلة، وملوّنة بالأزاهير والفراشات والعصافير..

وعندما قالت أمّه:

- أسرع بارتداء ملابسك..

وثب قلبه بين ضلوعه جذلان نشوان..

أمام المرآة شدّ قامته، ليطمئنّ على هندامه، ورأى نفسه وراء العينين والملامح الفتيّة موفور العافية، فتح درج"الكومودينو" وأخرج فرشاة ناعمة، أزال بها طبقة الغبار الرقيقة التي تكسو حذاءه، أعاد تلميعه بقطعة من الصّوف، ووضع الفرشاة وقطعة الصّوف في مكانهما من"الكومودينو" وأغلقه..

دبّ في مشاعره تلك اللحظة .. إحساس سعيد .. وللمرّة الثالثة سمع أمّه من حجرة الجلوس تناديه .. حلّقت أطياف من ترف ودفء ونعومة، فوق رأسه تماماً، وحين انتصب أمامها، أفسحت له الطريق وهي تنظر إليه نظرة معاتبة، كانت تحمل حبّها المؤكّد.. وهمست:

- تفضّل.. أمامي..

في الشارع بدأ كلّ شيء يبهجه .. هذا الشارع الصّغير الصّاخب، أولئك الصّغار الذين يتواثبون، والباعة المتجوّلون بنداءاتهم الشجيّة، وهذه البيوت الهزيلة المتلاصقة كأنّها تلوذ ببعضها .. أحسّ أنّه يودّ لو يقبّل الأشياء كلّها.. لو يضمّ إليه أمّه، الآن، وفي هذا الشارع.. أمام الناس، والدنيا..

حملت الشمس الدافئة أكثر من رجاء، الحديقة الصّغيرة كانت تضجّ تحت طلاّتها الناعمة، تضجّ بالأطفال الذين يجتازون ممرّاتها صاخبين، وفوق مرجها الأخضر اللاّمع يسقطون هنا وينهضون هناك، ما الذي يجري؟.. كأنّما حالة من الطّرب غشيتهم، كأنّما سعادة غامرة مسّتهم، وهو ينظر .. ولا يعرف من أين هبطت هذه الرؤى. في بداية هذا النّهار الدافئ!!

تنهّد من الأعماق، غمغم بينه وبين نفسه: إنّني أقترب من مواطن الهناءة والأمان، ها هنا يرسو القلب، يلقي بأشرعته المكدودة التي هزّتها الريح زمناً، إنّ قدمي تنشطان بي على نحو غريب .. كأنني أستعجل الزمن، والزمن يفرّ، ينسلّ من بين أيدينا، فلم لا نسرق لحظات الفرح الحقيقية؟.. لم لا نستلب منه سعادتنا .. يا أغاريد الزّهو والفرح، أحفظ عن ظهر قلب كل الدّقائق المنسيّة، تلك التي مرّت بي، أستحضر الوجوه الحلوة التي حفرتها

الأيام في قلبي المترع الحار، أجمع صور الأحبّة، ألملم أطراف الأحلام .. أنسج منها قصص العشق والغزل، والأماني الوردية..

أمّه إلى جانبه، تحادثه، وهو شارد كأنّه لا يفطن إلى شيء، سوى أنّه يحسّ بوحدته، وتفرّده، كأنه يريد أن يستأثر بالسعادة وحده .. لا يشاركه فيها أحد، ولكنْ !.. صحيح أنّ أمّه تهمس له بشيء .. توقّفتْ -الآن- نظرت إليه على نحو يعرف فيه أنّها ضبطته متلبّساً، شارداً، بعيداً، نائياً.. تلعثم لسانه، بينما اندفعت توصية بالكلمات المناسبة، أثناء مجالسة ذلك المريض، ولأوّل مرّة، عرف أنه ابتعد بخياله عن هذه الحقيقة، .. إنّ الهدف من مجيئه إذن أن يعود المريض . ولكنْ لا.. لا.. غير صحيح أنّه جاء من أجل المريض، وهو يعرف أنّه لم يغفل لحظة واحدة عن نفسه، كأنّما كلّ شيء قد توقّف من حوله، كأنّما فقدت الزيارة طعمها ونكهتها حين ذكّرته أمّه بالمريض!.. وما الذي يهمّه من ذلك كلّه.. ألا يستطيع أن يصطبر قليلاً.. ليعرف كلّ شيء..

وضحك من خواطره عندما وصل إلى هذه النقطة .. وامتدّت أصابعه تضغط على جرس الباب..

أحسّ بأنّ هناك شيئاً ما بدأ يغادره .. يهرب منه، على الرغم من أنه حاول أن يضبط بعض أحاسيسه، لكنّه لم يستطع.. شعر بأنّ حركاته تغيّرت.. حتى صوته، شعر

بأنّه غير قادر على أن يرتفع به إلى مسامعه، بحث عنه، فتّش عن الكلمات المناسبة، لم يجد فيها ما يسعفه في هذه اللّحظة الحرجة، ترك كلّ شيء يأخذ مجراه، وبقي هو – هكذا– ينتظر!.. والانتظار لم يكن طويلاً، حتى أنّه لم يترك له مجالاً يستجمع فيه شتات نفسه المتسرّبة في أغوار خيالاته وأوهامه، فقد فُتح الباب وأطلّ وجه امرأة..

وحين التقت العيون انفرجت الأسارير .. وانطلقت الأصوات –بعدئذ– ترحّب بالقادمين .. أما هو فقد كان مسلوب الإرادة تماماً .. كذلك الغريق الذي ترك نفسه وسط لجّة الأمواه تأخذه أنّى تشاء، بعد أن عرف أنّ أطواق النّجاة ستنجده في اللحظة الحرجة.. ثمّ لماذا يشغل نفسه بانتظار الدقائق المقبلة ما دام سلفاً يعرف بأ نّ كلّ شيء من حوله سيمدّ له يد المعونة، في الوقت المناسب..

وحده اتّجه إلى الغرفة (الجوّانية) حيث رقد المريض. بينما تركته أمّه لتنضمّ إلى جمع النّسوة هناك في الغرفة المقابلة.

دفع الباب، بدا المريض المستلقي في صدر الغرفة مفتوح العينين، تقدّم نحوه وهو يتمتم بالتحيّة، وبصعوبة بالغة ردّ المريض وقد أشرقت قسمات وجهه بفرحة حقيقية، كأنّه وجد أخيراً من يأنس إليه، ويسرّي عنه أوجاعه وآلامه..

السرير يئنّ إذا ما المريض تحرّك قليلاً، بعث هذا الأنين في نفسه كآبة لا حدّ لها، ترى هل يخيب أمله من وراء هذه الزيارة، .. لو كنت أ علم أنّني سأكون هنا لاعتذْرتُ!

لحظات مشوبة بالقلق الخفيّ كانت تمرّ به، بينما هو ينقل نظره بين المريض والنافذة، وسقف الغرفة، والأشياء المبعثرة هناك..

الأصوات خارج الغرفة تصل إليه متداخلة مبهمة، وقد حاول أكثر من مرّة التقاط نبراتها لعلّه يصل في النهاية إلى قرار بأنّ "الزيارة" ستكون كما صوّر له خياله، ورسمت له أحلامه..

وعلى غير انتظار، أحسّ برعشة قويّةٍ تهزّ كيانه، وشعر بقلبه يضجّ في صدره بينما صعد الدم حاراً إلى وجهه

انفتح الباب، وأطلّت.. فاطمة..

ثبتت عينيها فيه وتأمّلته ... ثمّ اندفعت إليه تسلّم .. تبتسم.. التقت الأكفّ.. سرى بينهما شيء أكثر من كلمات التّرحيب الحارّة.. شيء أكثر من التفاهم، أكثر من الرجاء والأمل.. و.. التوسّل.. شيء لم يعرفه من قبل .. كانت تبادله إيّاه.. تمنحه له بكلّ بساطة وعفوية، .. ولأوّل مرّة أدرك أنّ الكلام غير مُجْدٍ أمام طلّتها الناعمة، أمام إشراقة وجهها الآسر.. العذب..

لم يكن حضور فاطمة كذلك الحضور الذي نقيس فيه أو نتواضع عليه، كان حضوراً من نوع خاص متميّز . كان فيه شيء يجذب، يجعلك تحسّ بأنّك – حقّاً– أمام الحياة الحلوة العريضة، أمام مباهجها النديّة، ومفاتنها الورديّة التي تتغلغل في طيّاتها ب شائر السعادة وأماني الحبّ..

بدا وجهها الحنطي ملموماً بهالة شعرها الليلي المسترسل على كتفيها بدِعَة واطمئنان .. هفت نفسه إلى أن يلمس خصلاته، يشتمّ منها أريجها المثير، وفي قميص ذي رسوم منمنمة زرقاء وبيضاء بدت قامتها الرشيقة، خشي على كفّه أن تمتدّ إليها تستقرئ جزءاً من قدّ ها الأهيف الموّار..

ومرّت لحظة .. لحظة واحدة فقط، نسي فيها كلّ شيء حوله، نسي المريض، والسرير، نسي الغرفة بأشيائها المبعثرة، نسي نفسه تماماً وأحسّ بأنّه ينتمي إلى عالم لا يمتّ إلى زمان أو مكان، ولا يرتبط فيما حوله بسبب...

"حقاً ، إنّنا ننسى أنفسنا في لحظات الهناءة على نحو يصبح فيه من الصّعب تذكّرها في النّهاية، وإنها لسعادة لا يدانيها شيء إذا ما عرفنا كيف نحسن استذكارها.."

كلّ شيء من حوله رائع،..

وحين تزحزح المريض بدأ السرير يئنّ، فأفاق من

شروره وارتعش كأنّما استردّ وعيه، تحسّس بقدميه أرض الغرفة فعرف أنّه مازال فوق مقعده، أمام المريض، والسرير، أمام أشياء الغرفة المبعثرة. ولكنْ.. هذه الأشياء كلّها لم تعد تشعره بالكآبة، كلّ شيء في مكانه، وقد بدت الظّلال في الغرفة رائعة.. كأنّما هنالك روح خفيّة منطلقة سكنت هذه الأشياء أو أنّها استعادت الحياة فيها م ن جديد،..

فاطمة بحضورها البهيّ، أضفت على جوّ الغرفة شيئاً يشبه السّحر، أدركه بحسّه العميق، فاندفع يحاور المريض، دار حديث حول الوظيفة والمهن الحرّة، والحياة التي أصبحت رحبة تفتح ذراعيها لكلّ الطامحين، ثمّ تغيّرت دفّة الحديث فانحصرت بينه وبينها .. انصرف كلّ منهما إلى الآخر..

فاضت العيون بالهُيام، .. أفصحت بألف كلمة من كلمات الأشواق والحنين، دنيا جديدة طافت حولهما، والحديث نجوى، والنظرات عناق، والهمس بوح، صارا معاً، حواراً وتفاهماً، منحاً وعطاء,, هو قريب منها، وهي قريبة منه، لم يكن بينهما شيء مصطنع، أصغى إليها بكلّ جوارحه وأصغت إليه، انسجمت حركاتهما، تبادلا الابتسام، تألّقت أمامه وأشرقت إطلالتها، احتضن هلاّتها غير مصدّق، والوقت ينقضي بسرعة، وصوت أمّه يتناهى إليه وقد آذنت بانتهاء الزيارة، وشيّعته بنظراتها

إلى الباب، لم يجرؤ – عندما أصبح في الطريق– أن يسترق النّظر وراءه، ربّما تكون عند الباب تنتظر أن يغيّبه الطريق أمامها، وظلمة المساء بدأت ترين على ما حوله..

تناثرت الأسئلة صاخبة ضاحكة، وجهد في إخفاء حقيقة أحاسيسه، فرّ إلى حجرته بعواطفه، هرب بأحلامه الجديدة الهنيئة، والساعة صارت الثامنة، وهذه أشياؤه الصّغيرة يرتّبها في حقيبته.. وهو شارد محزون .. هذه أوّل مرّة يشعر فيها بمرارة الفراق، كم مرة غادر هذا البيت؟.. كم مرة ترك كلّ شيء هنا، والابتسامة ملء وجهه لا تفارقه، فما الذي دهاه الساعة، إنه يقتلع نفسه اقتلاعاً، يحسّ بأنّه مفارق البيت، والطريق، والأشجار والحنين، والأحلام، والحبّ .. و.. فاطمة.. فاطمة تلوّح بكفّ صغيرة وهو حائر...

ما أصعب أن نفارق من نحبّ، في الوقت الذي يتألّق فيه الحبّ، ما أصعب الفراق، وما أشقّه على نفس المحبّ

ظلمة المساء تنسحب فوق الأشياء، والساعة هي الثامنة.. لابدّ من السفر...

انفتحت جراح خفيّة في صدره، وهو يصغي إلى أصوات أخواته وأمّه .. كأنّه يحلم، .. تحامل على نفسه وعاد يرتّب أشياءه في حقيبة السفر .. ما أشق هذه اللّحظات على نفسه المتأججّة بمشاعر متباينة، هناك أثقال

تشدّه.. تهيب به أن يبقى..

– ترى م تى أستطيع أن أحسّ براحة القلب؟ متى يمكنني أن أستريح!..

ألقى أمام أمّه وأخوته بكلمات الوداع، وجرّ نفسه وحيداً إلى الطريق..

التقطت أذناه دعوات أمّه وهتاف أخواته، سكاكين صغيرة مهدهدة تنغرس في روحه ثم لم يعد يسمع شيئاً.

السكون يلفّ كلّ شيء .. وقع خطواته المتتالي هو الذي يسليّه في وحشة هذا الدرب المعتم، الكئيب..

هذه المرّة يشعر بأنه يسافر.. ترك قلبه وراءه، صار إنساناً آخر لم يعد يدفعه الأمل الأكيد ليشعره فعلاً بهدف العمل هناك، وهدف الحياة، .. صار لكلّ شيء طعم خاص، ضاعت أخيلته وأمانيه في زحمة مشاعره المضطربة.. عمره صار محمولاً على قطار الحزن، والمحطّات هاربة، لقد اكتشف أنّه لم يذق طعم الحبّ، .. انزوى في مقعد السيارة شارداً، بينما أطبق الليل وراء النافذة على الأشياء..

شعر بالخدر يسري إليه، يتسلّل رويداً رويداً .وهو يريد أن يستريح، أغمض عينيه، وإطلالة فاطمة وحدها هلّت عليه، كانت تمسح عن وجهه سحابات الحزن .. استسلم لحضورها البهيّ.. وأغفى..

❐❖❐

المرور ممنوع

ذلك زمن مضى..

لكنّ الأيام لا يمكن أن تمحو تلك الرؤى..

ومهما يمرّ بي من ذكريات، مهما يمرّ بي من أطياف وأخيلة. فالقلب ما يزال يخفق وجداً، ينهض وينبض حتى يفيض بأحلى الأماني، وأرقّ الأحلام .. فالصّور العذبة تتجدّد. والتطواف في رحاب الماضي له مذاقه الخاص، والحبّ الأول يبقى في حنايا الصّدر إلى الأبد..

الحارة الصّغيرة، حارتنا التي تعانقت بيوتها، ماثلة أمامي، أحفظ عن ظهر قلب تفاصيلها . بيتاً بيتاً، وشباكاً شباكاً. أعرف عدد الأبواب، وعدد بلاطاتها المرصوفة، من الفرن حتى نهاية الزقاق المسدود. أستطيع أن أحصي فروع شجرة التّوت المنتصبة التي غطّت حائط بيت غشرانيان، وامتدّت إلى فسحة دار الهبيان، إلى دار اللبابيدي. أعرف ناسها وقططها، أسمع هديل يمامها السابح في فضاء الحارة.

بين كوي السوق وأعلى شرفة من شرفات قصر الطّيارة، ها هنا حارتنا البيضاء، أصغي إلى همساتها ووشوشاتها تتردّد وقت السحر، أناجي حيطانها، ودروبها،

وما حفرناه على عتبات أبوابها، حارتنا التي مضى عليها زمن طويل عالقة في شغاف القلب .. وها أنذا على مشارف الأربعين، أدبّ في سنيّ العمر، وأوغل في الطّريق، الشيب بدأ يغزولمّتي، الأولاد الصّغار كب روا. الزوجة التي سارت كتفاً لكتف معي تغيرّت صورتنا. يوم زواجنا، ويدي تحيط خصرها . بدت غريبة، هذا أنا . هذه هي. أحقاً نحن كنّا هكذا.. أم أنّنا نتوهم.. بردت عواطفنا، أو أنّها استكانت بعد رحلة .. بعد أن اشتعلت وتوهّجت وتأجّجت.. لكنّ مرور الأيام، ورتابتها . وتعاقب الليل والنهار، والقلق، والأرق، والسهر، والنكد، والانتظار، والعذاب، والترقّب، دفع بنا إلى منعطف ناءٍ، استنامت فيه مشاعرنا دفعة واحدة، صار تعلّقنا بالماضي نوعاً من التعويض عن أمانينا التي وئدت .. الماضي نحمله معنا . يحيا فينا، ينقلنا بين الحين والحين إلى دني ا مسحورة، ملوّنة نتزوّد منه لننطلق في الحاضر، هل مرّت عشرون سنة، هل عبرت تلك السنون حقاً!

ذلك عهد مضى..

لكنّه مازال يتألّق، يلتمع كالبرق الخاطف، يغيب وراء سدوف العتمة، ثم ما يلبث أن يشقّ الحجب والأستار، فيخطف الأبصار، ويعيد لنا التّذكار..

لقد رأيتها؛ وأنا ماضٍ في طريقي..

كنت أقود سيارتي، وخطر لي أن أختصر المسافة،

فأقطع شارعاً فرعياً، أصل إلى وجهتي مبكّراً، لكنّها كانت هناك، كعهدي بها منذ عشرين سنة!..

لست أدري كيف توقّفْتُ .. على غير انتظار .. ضغطت على الكابح، صرّ صوته وسط الشارع المعزول.. التفتتْ إليّ هي.. هي، تلك التي أحمل لها في قلبي أعذب صورة، وأحلى مثال..

تجمّدت اللحظة.. توقّفت حركة الأشياء. لا صوت ولا نأمة. لا همسة ولا نسمة .. لاح وجهها على ضفة الشارع، إشراق مبهر جذبني إليه، خِلْتُ أنّني في الحارة، حارتنا الصغيرة، رأيت نفسي فوق درّاجتي، في ربيعي الثامن عشر، أريد أن أقطع الزقاق، أنطلق على صهوتها كمن يركب فرساً. درّاجتي الأثيرة لديّ. أجتاز بها الحارة، والمدينة، والجسر، أعبر الضّفاف. أجوس خلال البساتين والظلال، أفياء وأنداء.. درّاجتي تلك شهدت حبيّ الأول، تعرف كلّ خفقة قلب، كلّ رفّة هدب، سمعتْ وشوشات الصّباح، وكتمت نجوى صباي، أصغت إلى دبيب أقدامنا تنقر بلاطات الحارة في الأماسي..

فتى غرير، يلبس قميصاً بكميّن قصيرين، يظهر عضلاته المفتولة. يردّ بنزق خصلة شعره الأشقر عن جبينه، وينطلق فوق الدرّاجة، يضع قدميه على دوّاستيها، وينطلق.. يطير، من أول الحارة إلى آخرها.. وحين تهدأ الأقدام، وينقطع السابلة، يقف في المدخل، يسدّ الطّريق

على مَنْ سيمرُّ ومن سيمرُّ!. غيرها!. غير"نركيز"..

كنتُ أتسمّر في مكاني، وأنا ممتطٍ دراجتي، أنتظر .. وأنتظر.. و.. تأتي.. لم تتخلّف يوماً، تهمسُ:

- دعني أمر..
- المرور ممنوع..
- لكلّ النّاس!
- لكلّ الناس.. عدا من...!
- وأين هي التي ....!
- أمامي!

تتلفّت:

- أين؟
- أمامي!
- مَنْ؟
- أنت!

وتهدل بين يديّ، تتطامن برأسها الجميل، في عينيها أرى دفء الثلوج في آرارات، ألمح تلوّن الأزهار التي تتفتّح على ضفاف آراز وسيفان، تتغيّر نبرة صوتي . ويتضرّج وجهانا، أقبل عليها بكلّ قلبي، وتقبل عليّ..

"احسبوا اذن..

بأيّ موجة، وفي كم دقيقة..

كم غراماً من الدم يجري من قلب نركيز

إلى خدودها الطاهرة

جالباً ذلك اللهب الداخلي..

والذي كنّا نسميّه إلى يومنا وبسذاجة: الخجل"(*)

أنا لم أعد ذلك الصبيّ الغرير، بل أصبحت عاشقاً، وها ولْهي قد بدأ... روحها تجتذبني إليها، لا ملاحتها، لا قوامها البديع، ولا عيناها الحلوتان الواسعتان، لا جيدها العاجي ولا شعرها الطويل.. لقد ملكت عليّ نفسي، ملأت روحي، سكبت كلّ ما عندها من لطف وظرف ورشاقة ورقّة.. أنا عاشق صغير لهذه البنت التي تقف أمامي .. تبتسم..

– يالك من عابث!

– لست عابثاً..

– كم تحبّ مشاكستي

– بل أحب أن أتملّى منك

– لو رآنا أحد، لقال..

– ليقل ما يقول.. أنا.. أحبك..

أدرْتُ بصري، غمرني شعور غريب، لقد قلت ما أريد، ما أروع –دائماً– أن نقول ما نريد..

– اسمعي، نركيز، أنتِ لي..

– أنا لك. اسمح بالمرور

(*) *من قصيدة للشاعر باروير سيفاك، ترجمة مهران ميناسيان*

أتزحزح من موضعي، أُنحّي درّاجتي، تن فلت بسرعة، يمامة طال أسرها في شبكة صيّاد..

تلك هي..

ما أعذب أن أسترجع هذه اللحظات..

كنّا ساذجين، نوايانا بيضاء، أحلامنا ورديّة، حروفنا من شهد، نهدل همساً شجيّاً، خلف الأبواب، وراء الشبابيك، تحت المزاريب، مع إيقاع قطرات المطر فوق السقوف، في ليالي الصّيف، والقمر معلّق على السطوح، في برد الشتاء وأنفاسنا تشيع الدفء في أصابعنا المثلّجة..

وفي الحارة

سرى خبر، لم يهتمّ به سواي . نركيز خطبت، وعرسها قريب، نقلتْ أمي النبأ، كمن يقول، المطر ينزل من السماء!

هل هناك من يعرف.. أو يهتمّ؟!

ولكنّ"نركيز" ...."نركيز" التي علق قلبي بها، هي التي خطبت، وستتزوّج، وأنا طالب "البكالوريا" أركب الدّراجة و .. أحلم، أقطع دروب الحارة، معلناً بجرسي المبحوح عن تطوافي المجنون، أحلم بأن تكون نركيز لي،..، عشّنا الصّغير فوق سطح الدار، "علّية" من خشب، أضمّ فيها نركيز .. هذه أحلامي تبخّرت.. وأنا واقف أول الحارة، بعضلاتي المفتولة، أردّ خصلة الشعر عن جبيني بنزق.. وأنتظرها!!

***

عشرون سنة مرّت..

وها هي ذي الآن، أمامي، أنا في سيّارتي، وهي في طرف الشارع، رفعْتُ كفي محيّياً، هزّت رأسها .. ترجّلْتُ إليها، انتظرتْ أن أفعل ذلك، قرأْتُ في عينيها حكاية لا يعرفُها غيري، قرأت في عينيّ حكاية لا يعرفُها غيرُها..

ها هنا مرفأ تحطّ فيه الأشرعة البيضاء..

أعرف أنّها تزوّجتْ وأنجبتْ .. صار أولادها في الجامعة.. تعرف هي أنني تزوّجْتُ وأنجبْتُ .. صار أولادي شباباً، هل هناك مسافة للحب الأول .. المنبعث، أفي السراج بقية زيت!..

نطقَتْ على استحياء:

- أهلاً..

ردّت شفتاي بلهفة:

- أهلاً..

التمعت عيناها اللتان مازالتا حلوتين.. تمتمتْ:

- دعْني أمرّ!.

- ليتني أستطيع أن أقول: المرور ممنوع.

- ليتك تمنعني –فعلاً– من المرور.

- ليت الزمن لم يكن بخيلاً.

- لم تعد تنفع ليت.

- ذكرانا باقية..

لم أكن أعرف ما الذي اعتراني، توقّفت الكلمات، بقيت معلّقةً بيننا، بدت نركيز أجمل ممّا كانت عليه قبل عشرين سنة، صارت أكثر نضجاً، أكثر جرأة..

- أبوسعي أن أراك..

- دع ذلك للزمن..

- لكنّه غدّار..

- تلك سنّة الكون..

- سننتصر بالحبّ..

- حقاً!.

- حقاً..

وتجاوزتني..

ومن وراء زجاج سيارتي، لاحقتها نظراتي .. كنت ما أزال تحت وَقْع المفاجأة، ظلْلتُ مشدوداً إليها .. تجذبني روحها... أأنا في حلم!. علا زعيق سيارة خلفي.. أطلقت بوقها ورائي، ماذا يريدون منّي؟!..

وسمعْتُ صغيراً يستحثّني على المضيّ، قبل أن يأتي شرطيّ السّير، وتلحق بي مخالفة عرقلة المرور في .. الشارع.

❐❖❐

احتراق العصافير

توقّفت سيارتنا أمام المشفى الكبير،..

الازدحام شديد، حتى أننا لم نعرف أين سنترك السيارة. إلاّ أنّ عبد المجيد استطاع أن يوقفها عند الباب الرئيسي بمهارة فائقة..

دخلْتُ بسرعة من باب الأطباء، شددْتُ قامتي . ورفعت أنفي قليلاً حتى أدخل الهيبة والرهبة في نفس الآذن الذي قد تسوّل له نفسه التدخّل ليمنعني كزائر من الدخول..

الساعة تشير إلى الرابعة تقريباً . وعبد المجيد إلى جانبي يلفت انتباهي كعادته إلى الجمال المسفوح في الطريق، الذي ينتظ ر من يكشف عنه وسط الممرّضات الواقفات بين غرف الإسعاف وحجرة العمليات..

قال ضاغطاً على الحروف:

–انظر أيّها الشارد . ها نحن بين الحمائم البيض،

احذر أن تضيّعٍ الفرصة .. ولكنْ.. لا فائدة ستبقى راكباً رأسك وجاهلاً!

أكثر من مكان كان يشغله المرضى والمصابون الذين لم يأتِ دورهم في الكشف .. بدا –بصورة قطعية– أنّ المشفى ما زال يعاني من الفوضى والازدحام وقلّة العناية،..

الأطباء يتسكّعون أمام الردهات بمرابيلهم البيضاء، وسجائرهم المفلترة، واحد منهم كان هناك واقفاً عند فسحة السلّم الصّاعد إلى الطابق الأول، وعيناه معلّقتان بالقادمين كأنّما على موعد، في حين وضع سيجارته جانب فمه وأخذ يدخّن بعصبية، بدت وقفته تلك كأنه واحد من شخصيات أجاثا كريستي البوليسية..

في البداية، لم يكن لديّ وأنا مع عبد المجيد إلا فكرة واحدة، هي زيارة أبي الذي غرق في سبات عميق منذ الفجر.. نُقل الخبر إليّ في الدائرة، عن طريق فوّاز ابن حارتنا القديمة. الذي لم يتعلّق بعمل سوى التسكّع ونقل الأخبار من السوق إلى الحارة ومطاردة البنات!..

قفز عبد المجيد أمامي الدّرجات القليلة، ارتقينا معاً، كان المصعد ما يزال معطّلاً كعادته، أعرف ذلك تماماً، تناهت إلينا أصوات مختلطة. كان هناك من يركض، والعربة الصّغيرة يدفعها ممرّضان شابان، يمضغ أحدهما شيئاً في فمه بلا مبالاة.

لم أكد أنتقل إلى أول السلّم الصّاعد إلى الطابق الثاني حتى رأيت أختي وأولادها وهم يسرعون نزولاً، توقّفتُ عند أول درجة، غير مصدّق، ومِنْ ورائهم لمحتُ عمّتي و.. دقّ قلبي، خطر لي سريعاً أنّ .. و.. أنّ.. ولكنّ ابن أختي أقبل عليّ وسألني مندهشاً:

-أنت هنا. مَن أخبرك؟

ازدردت ريقي.. وعبد المجيد رأيته يغيب بعيداً في زحمة الصّاعدين..

همسْتُ:

-أحدهم..

اقتربّت أختي، وضعت يدها على كتفي وقالت:

-لم ندر ما أصابه صبيحة ال يوم، أحضرنا الدكتور عدنان... نصحنا بإسعافه في المشفى!..

-والآن!

-تعال.. هو موجود في جناح الإسعاف..

وتذكّرت.. لقد مررْتُ منذ لحظات بالجناح، فكيف لم أنتبه لوجود إخوتي، لكنّ الخبيث عبد المجيد لم يترك لي فرصة!

***

فوق السرير العريض كان أبي فاقداً الوعي تماماً،

وأمي جالسة عند قدميه، وأخوتي حول السرير صامتون . كأن على رؤوسهم الطّير..

اندفعت نحو السرير، أفسح لي أخي الأكبر طريقاً إليه، تلمّست كفّاي يده المسحوبة فوق صدره، أحسست أنّني سأبكي، نظر أخوتي إليّ بحزم فابتعدت ولم أقل شيئاً.. احتبست الكلمات والدّموع في لحظة واحدة...

لقد تركت أبي في البيت سليماً معافى . لا يشكو من شيء وها هو ذا - أمامي- هذه اللحظة ممدّداً لا حراك فيه.. أمّي تبكي . استنكرت بكاءها، لكنني لم ألبث أن شعرت للمرة الثانية أنني أريد أن أبكي مثلها!

المشهد ذاته لا يعدو أن يكون تمثيلية هزلية، ممّا ألفناه في السنوات الماضية، فأبي وحده الذي يسقط كلّ مرة بمرض مفاجئ، سبات ، أو غيبوبة، لا يترك مجالاً للظنّ بأنها النهاية، غير أنه يخرج بعدئذ، كأنّ شيئاً لم يكن.. وهو أكثر قوّة، وأجهر صوتاً!

وأبي على الرغم من أنه كان يلتزم الحمية الشديدة فإنه أحياناً يضرب بها عر ض الحائط، فيشتم الأطباء ويتهّمهم بالسرقة والاحتيال، فهم قتلة يعيشون من آلام الناس، ويكسبون من وراء عذابهم وقلقهم ذهباً!

في الصّباح، وقفت أمي على سجادة الصّلاة، أدّت ركعتي الفجر، التفتت نحو أبي، كان دافناً رأسه عند

طرف الوسادة، هذه عادته حين ينام، يحتضن الوسادة بيده اليسرى ويدفع بطرفها نحوه مشكّلة مع حافّة السرير مثلثاً يدفن رأسه في زاويته البعيدة..

حين هتفت أمي:

-صارت الخامسة.. هيّا..

لم تسمع إلاّ صوتاً كالشخير، فأعادت نداءها الرقيق محاولة أن تزيح طرف اللّحاف عنه، فها لها أنّ رأتْ زبداً أبيض يؤطّر فمه تح ت شاربيه الخفيفين .. كان أبي يشخر وعيناه نصف مغمضتين . أزاحت الوسادة، أسندت رأسه الرمادي إلى راحتها وهي تهتف باسمه .. طاهر.. طاهر..

بدا أنّه لن يسمع أبداً..

أثارها المشهد، فاضطربت من أعماقها، هُرعت تلفّ كتفيها بشالها الأزرق الخفيف، وركضت حافية إلى الصّالة، دفعت أصابعها وسط الظلمة الضافية، تبحث عن زجاجة "الكولونيا" في الخزانة، كانت تريد أن تمسح جبينه لعلّه يشعر بما ينعشه فيفيق .. لكنّها عدلت عن ذلك . هبطت الدرجات القليلة، اقتربت من الحجرة التي ينام فيها أخي وزوجه، نقرت على الباب بلطف:

-هدى.. هدى..

انفرج الباب، بدت هدى بقميص النوم نصف نائمة .

كانت قد فهمت شيئاً، فأسرعت وراءها تساعد في انعاش أبي، لكن ذلك لم ينفع، كأنّما صمّم على ألاّ يفيق، واستيقظ أخي محمّد، اندفع بلا وعي، لكنّه أيضاً وقف حائراً أمام المنظر المثير..

نصف ساعة والتأم جمع الأسرة، اخوتي، الأولاد، عمّتي، خالتي، ابنتها، والدكتور عدنان ولم يكن هناك من حيلة إلاّ نقله إلى المشفى..

همس أخي في أذني، بأن أغادر إلى البيت، لأحضر ما قد يلزم أبي، إذ لا بدّ – وحاله هكذا– أن تطول إقامته في المشفى..

أحنيت رأسي، وقبل أن أنطلق سمعتُ وقع خطواتٍ ورائي، رفعتُ عينيّ، فإذا بي أمامها وجهاً لوجه!!

أكثر من سنة ونصف السنة مضت على آخر مرة التقيتها في دار عمّي .. خلّفت في ذهني صورة من الصّعب أن تمحوها الأيام، لم يكن ذلك ذكرى عابرة !

والآن، يا إله السموات، هي ذي أمامي في الرداء الأبيض، ولكنْ.. لا.. إنها ليست تلك التي عرفتها منذ سنة ونصف السنة، كانت "سحر" هنا.. شخصاً آخر..

عينان حلوتان جريئتان . في وجه يضجّ بالإثارة والجاذبية، ملأ حضورها المكان، بقامتها المشدودة، وصدرها الناهد، بددتّ سحابة الحزن بابتسامتها الرقيقة .

أحنت رأسها تحيّي، اقتربتْ من أمّي تهمس لها بشيء . وفي انحناءتها الآسرة تدفّقت صور ومشاعر.

.. كانت "سحر" صديقة ابنة عمّي. وعلى الرغم من أنّها تكبرها بخمس سنوات، فقد بدتا أنّهما متفاهمتان جيّداً.

وفي زياراتي المتكرّرة للبيت الكبير، انفردت بها مرّة، صارت أنفاسها تتلاحق حين اقتربت منّي وهي تهدل بين يديّ:

-هس.. أنت ولد خبيث، نظراتك تقول أشياء كثيرة . أنا أفهمها.. ولكنّ..

هتفت:

-أحسّ بالدم يصعد إلى رأسي إذا ما وقفت معك!

-هذا هو الحبّ يا غشيم!

أسندت كفّيها على كتفيّ، ثم همست:

-أتعرف كيف تقبل فتاة!

نظرت إليها ببلاهة، ولم أنبس بحرف..

-هكذا تفعل.

ونفثت شفتاها لهباً على وجه ي، كنت مأخوذاً، كمنوّم، أكاد أهوي عند قدميها .. ثمّ.. لم أتذكّر إلاّ أنني هربت قبل أن تراني ابنة عمّي، وهذا آخر العهد بها.

التقطت أذناي كلماتها المختصرة:

–لم تظهر النتيجة.. نصف ساعة.. ربّما..

أمّي قلقة، ولم يعرف أحد ماذا سجّل الطبيب في أوراقه.. قال أخي:

–هيّا.. كما قلت لك.. عد إلى البيت..

كنت أنظر إليها، ثم خطر لي خاطر. فسألت:

–هل يُسمح بالدخول إلى المشفى بعد الخامسة، في غير أوقات الزيارة؟! ردّت وهي لا تنظر إليّ:

–الدخول ممنوع، سأتدبرّ ذلك، سأكون في غرفة الممرضات. فاطلبني أنا في الانتظار.

أثلجت كلماتها المطمئنة صدري، وأبي كان قد فتح عينيه، وعرف أنّه في المشفى، أقبلت أمي عليه بلهفة:

–أنت بخير!

فاستنكر وجوده ورفع صوته في احتجاج:

–من قال لكم إنني بحاجة إلى المجيء إلى هنا؟

شرحت أمّي:

–بقيت أربع ساعات فاقد الوعي. قل الحمد للّه..

حاول أبي النهوض من السرير، منعته أمّي، وكفكفت عمّتي دموعها قائلة:

–أنت بخير.. الآن!

ولحظ أبي زجاجة التغذية فوق رأسه، فشعر بالهدوء، ولم يقل شيئاً..

***

قطعت الممرّ عائداً..

أحسست براحة حقيقية، بدا المشفى هادئاً إذ انصرف الزوّار والمراجعون، وساد السكون، فأغلقت الأبواب، وأخلد المرضى إلى النوم..

قبل أن أهبط الدرجات الرخامية . التفتّ برأسي فإذا هي ورائي، ابتسمتْ وهي تقول:

–الخامسة والنصف أنا في الانتظار..

–و.. وماذا سأقول عند الباب الرئيسي:

–قل.. إنك تريد.. سحر!

صعد الدم إلى وجهي، هززت رأسي، هبطت مسرعاً..

***

في البيت انتابني إحساس غامض..

لم أكن أعرف ما هو، فهذه هي المرة الأولى التي أجد كلّ شيء هادئاً، وفي مكانه بالضبط .. سرير أبي فارغ، ينظر إليّ ببرود . رفرفت ألوية الكآبة .. حين سقطت عيناي على قميصه المتهدّل فوق المشجب .

طربوشه هناك على الطاولة، قلت في نفسي:

–من عادته أن يكون نائماً وقت القيلولة!

حدّقت في المرآة..

تحسّست ذقني، عرفت أنها بحاجة إلى حلاقة، هذا أول عمل أنجزه، ولكن سأتناول غداء خفيفاً، وبعدئذ أرتّب أشياء أبي التي ستلزمه هناك في المشفى..

بحثت عن الفرشاة، كنت أعرف أنّها فوق حافة النافذة، لكنني لم أجدها.. تناهى إليّ غناء شجيّ من مذياع وسط الشارع . مددت رأسي من النافذة أتبين زحام السيارات والناس والغناء الأسيان..

شعرت بالحزن، تلمّست ذقني ثانية، ثم رأيت أنّة من الحماقة أن أقوم بالحلاقة .. ليس هناك ما يفرح، والسعادة الحقيقية غير موجودة، والكمال المطلق وهم .. فتحت الثلاّجة. لم أجد إلاّ ثلاث قطع من البطاطا المقلية، أخرجت خبزاً، وصنعت شطيرة صغيرة حشوت بها فمي وأنا شارد..

.. أطياف غير مرئية مرّت أمام ناظري..

لم أكن مطمئناً . خلت أنني أغرق في ضباب غير حقيقي... والساعة تدقّ الخامسة والربع .. سأكون في طريقي إلى المشفى في الوقت الذي يغادره الزائرون . لا بأس، المهم أن أتمكّن من الدخول في موعدي تماماً..

أمام باب المشفى لم يكن هناك أحد..

وقفت عند النافذة الصّغيرة..

نقرت على الزجاج الشفيف نقرتين، برز رأس، عرفت فيه البواب:

–نعم!

–رجاءً. أريد الممرضة سحر.

هزّ رأسه، وغمز بعينه مبتسماً:

–أهلاً وسهلاً...

ولمحتها مقبلة..

كانت تبتسم بهدوء .. ووجهها الخمري يشعّ، بنطالها الضّيق يبرز قدّها البديع، وصدرها الناهد يتحدّى نظراتي المضطربة.. وحين انفرج الباب، مدّت كفّها الناعمة:

–أهلاً..

قلت:

–أرجو أن يكون أبي بخير..

–منذ لحظات قُدّم له العشاء..

بدت – هذه المرّة– آسرة أكثر مما يجب .. كان جمالها من نوع خاصّ، ذاك الذي تشعر حياله بالخوف .. الخوف.. ممّن؟! من الآخرين . المتفرّسين، ذاك الذي تشعر – لأول وهلة– أنّ عليك أن تخبئه عن العيون،

بعيداً، أن تصونه عن كلّ فضوليّ يمكن أن يديم النظر محدّقاً! لتحتفظ به لنفسك .. بدت سحر في تلك اللحظة بالذات، غريبة، عن كلّ ما يحيط بها، بدت نقطة مضيئة في عتمة كئيبة .. ردهات المشفى القديمة . الممرّ الطويل الذي يفوح بالقذارة والإهمال، الأبواب المضعضعة الصامتة التي فغرت أفواهها ببلاهة، الأسرّة البيضاء القاتمة.. سحر وحدها تضفي على كل شيء، إشراقاً في غير موضعه، أو هكذا خيّل إليّ!

وعلى غير انتظار .. أمسكت بذراعها، جاعلاً منها دليلي ومرشدي، وعين البواب تلاحقني، وأن يتشاغل بترتيب الكراسي في غرفة الانتظار..

في جناح المرضى آلمني مشهد الطفل المشوّه، والشحوب يغطّي كلّ شيء- وجهه، قدميه، يديه، وأمه جالسة تكفكف دموعها ذاهلة عمّا حولها..

لبثت وقتاً غير قصير أمام سرير أبي، ثم رأيت أن أعود، فأطالة الزيارة في غير الأوقات الرسمية قد تسبّب حرجاً..

لمّا صرّتُ في الممرّ، أحسست أنني أريد أن أقول لسحر شيئاً، أيّ شيء .. أن أسألها، أن أستفهم منها ماذا فعلت خلال هذا الغياب الطويل؟

وتوقّفتُ في المنعطف كانت سحر إلى جانبي،

التقطت أصابعي كفّها كان كلّ شيء، من حولنا لا قيمة له، أصبحت الأشياء لا تساوي شيئاً، فأنا وحدي الذي يتلمّس أصابع سحر الحريرية همستُ:

–متى سينتهي دوامك؟

–بعد الثامنة..

–هل بوسعي أن أراك في غير هذا المكان؟

نظرت إليّ طويلاً، ثم تلفّتت حولها، كأنّما تخشى أن يراها أحد وهي واقفة معي.

اقتربت منّي، فتضوّع الورد من حولي، كانت عيناها تقولان ما لم أفهمه..

عدت أهمس من جديد:

–أيمكنني أن أراك في غير هذا المكان؟

خفضت عينيها ثم حرّكت شفتيها بأسف:

–لا.. لا أظنّ.. غير ممكن..

هتفت محتجّاً كمن تلقّى صدمة:

–لماذا!

مدّت كفّها نحوي وقالت هامسة:

–لم أكن أعرف أنك ضعيف الانتباه إلى هذه الدرجة!

سقطت عيناي على محبس صغير كالخيط التمع في

اصبع كفّها اليمنى..

-ها..

وسقطت يدها إلى جانبها باستسلام، بينما اضطـ رب وجهي بأشياء غير مرئية..

اندفعتُ وحدي إلى الباب..

لم يعدْ عندي ما أقوله..

كانت قطرات المطر الخفيف الناعم تبلّل وجه المرج الداكن حول المشفى، ولخطواتي في الممشى وقع غريب..

❒❖❒

اسمه هشام

من الزاوية الشرابية ينطلق صوت الأذان، أذان العصر، يتهادى الصّوت راشحاً بالمهابة، إيقاع الأنوال : تريك.. تراك.. تريك.. تراك يتوقّف .. يغيب ليسمح للمؤذّن أن يمدّ صوته حتى منتهاه..

والزاوية هي بداية الدرب قبل القبو، بدايته قبل الوصول إلى أزقّة ضيّقة ملتوية، طريق "اليعاقبة" وما وراءه حتى سوق الشجرة، حمّام القاضي، وما يليه حتى الساحة نفسها، تتلوّى الطّرقات، تتباعد ثم تفترق، لكنّها لا تلبث أن تتقارب وتتعانق ثم تتقاطع وتفضي إلى الساحة هناك..

طست البيلون النحاسيّ في يدك، والبقجة فوق رأسك وأنت تركض، تسبق أمّك إلى الحمّام .. من طريق اليعاقبة، تركض، تريد اختصار الطريق، ماراً بالفرن، ومحطّتك الواعدة تنتظر، محطّتك هناك أمام الجامع

الصّغير، في الزاوية نفسها، الجامع الصّغير قابع في طريقك منذ الأزل .. بابه العريض المدهون باللون الأخضر يومئ إليك .. ضع البقجة على عتب ته، اتركْ طست البيلون هناك، استرح قليلاً، اللّعب يحلو بين مصطبتيه الحج ريتين، الردهة ذات البلاطات المربّعة تأخذك إلى فضاء الجامع، فسحة مستديرة تقابل الحرم الهادئ ثم سور قصير تطلّ من ورائه مقبرة الشهداء!.

شاهدات قبور متناثرة، صامتة، ومتوحّدة .. ينخلع القلب لمرآها.. ولولا وجود شجيرات الدفلى والزيزفون، لولا وجود الدالية ذات الأذرع الممتدّة- ككائن أسطوري- في كلّ الاتجاهات لبدا المكان موحشاً .. حزيناً. على الرغم من بياض حجارته، كأنّما زاده البياضُ وحشة وبرودة مرتعشة!

الزاوية تزدحم في أوقات الصّلاة، عمال النسيج والأنوال وصانعوا القباقيب والمداسات الخفيفة والنّعال الثقيلة والكندرجية وبائعوا المربّى والكسبة والحلاوة الطحينية هم قاصدوها، يصلّون الظهر والعصر، وأحياناً لا تفوتهم صلاة المغرب، أيام العمل المزدهر والمواسم والأعياد، ثم ينصرفون إلى دكاكينهم على عجل، وهم يتمتمون الأدعية ويقرؤون الفاتحة، ويمسحون على صدورهم.

لم يكن هنالك أثر لعبد المنعم حين اقتربْتَ من

المصطبة، ومع ذلك فقد مضيْتَ إلى الزاوية، كنْتَ تمنّي نفسك بأن تظفر بمحمود أو أكرم، أو أيّ واحد، تتابع لعتبك المفضّلة بين المصطبتين، بدت الفسحة خالية، شعرت بالخوف وأنت تقترب من الحرم الموصد بابه، طارت يمامة.. كانت واقفة. هناك. فوق الشبّاك العتيق، انتصبت شواهد القبور حزينة- مكتئبة.. ظهرت سعفات النخيل يابسة، مصفرّة، انداح في الجوّ شيء مبهم، لكنّك صمّمتَ أن تصلَ إلى المقبرة، خلف السّور، تابعْتَ بنظراتك طرفَه الحجريّ، هل تتسلّقه فتكشف ما خفي عنك؟! أليس هنالك من درب ترابية تفضي إلى الخلاء البعيد الذي يصل آخر الحارة بحوش آل الغنم، بالدبّاغة، بسوق الحدّادين، بساحة المغيلة ! لكنّك توجّست خيفة من أن تقدم على عمل طائش! سمعْتَ صفيراً!!

عُدْتَ أدراجَك إلى المصطبة..

مررْت ببوّابة الجامع .. كان هناك هشام البحري، هشام نفسه بشقرته المضيئة وعينيه الزرقاوين، طار قلبك فرحاً، ركضْتَ إليه، وركضَ إليك، كنتما صديقيْن من دون زيارات، وهشام يسبقك بصفّ واحد في المدرسة الابتدائية، لكنّ نظافته ووسامته تأسرانك .. حديثه النّاعم العَذْب يجعلك تأنس إليه، وهو لم يكن يظهر إلاّ لماماً، وأمّك لا تسمح لك بالخروج من الدار، تخاف أن تلتقي بالأشقياء من أولاد الحارة، وهشام ليس منهم، اكتشفت أنّه

يذهب مع أعمامه ليشتغل في ورشة صبّ "البيتون" ثم أتيح له أن يسافر و.. انقطعت أخباره نهائياً!

قال هشام. وهو يحكّ أرنبة أنفه:

-ماذا تفعل هناك؟

-أ.. أريد أن أقفز فوق السور!

اتّسعت عيناه الصّافيتان من الدهشة:

-السّور.. سور المقبرة!

-نعم..

-والأموات.. وحرمة الراقدين!

-وماذا في أن أقفز وأعرف ما وراء الأرض الخلاء؟

-حتى الآن. لم يجسر أحد أن يفعل ذلك..

سكتَ لحظةً. ثم هتفْتَ:

-هشاك. تعال معي..

-إلى أين؟

-إلى هناك. نجتاز السّور معاً!

توقّف هشام محتاراً..

ولسْت تدري لماذا رأيته هذه المرّة، يصغرك كثيراً . شعرْتَ أنك تستهين به، برأسه الأشقر الجميل، وعينيه الزرقاوين. الصّافيتين. ووقفته الآسرة. قلْتَ في نفسك.

–يا له من صديق جبان!

شدَدْتَ على كفّيه، أمعنت النّظر في وجهه البدري، في بحيرتي عينيه العميقتين:

–أتأتي.. أم أنّك..

ولم تلفظ (...) لأنّه فهم ما تريد أن تقول فأسرع يردّ باستهانة وعزم:

–بل سآتي.. هيّا..

تأبّطْتَ ذراعه، وسرتما إلى البوابة، فالباحة . حتى وقفتما أمام السّور.. قلْتَ:

–دعني أسبقك حاول أن ترفعني إلى فوق!

وحين انحنى بجذعه ليجعل كتفه الأيمن دعامة تستند إليها في ارتقاء السّور، تناهت إليكما نقرات عصا على البلاط الحجريّ..

–تك.. تك.. تك.. تك..

قفز هشام كالملسوع، وركضْتَ أنت إلى جذع شجرة الزيزفون.

همس هشام:

-إنّه جدّي!

ومن وراءِ الشجرةِ لمحت الحاج اسماعيل . جدّ هشام، دقّ قلباكما خوفاً . لن تستطيعا الإفلات من عصاه السنديانية. أمسكْتَ كفّ هشام، وهمسْتَ:

-لن يرانا!

اقترب هشام منك، شعرت بأنفاسه الدافئة اللاّهثة . أحسست بحرارة جسمه المرتعش، هدأ كلّ شيء إلاّ نقرات العصا الملحاح، وصرّ الباب الكبير، وأدير المفتاح في القفل، لم يعد هناك خوف، فلماذا يرتعد هشام، ولماذا يخفق قلبك بعنف، لمَ أنتما متلاصقات ترتجفان، تحت شجرة الزيزفون، ينفث كلاً منكما الدفء، ويتلمّس كفّ صاحبه!!

مرّت لحظات، خلت أنّها طالت و .. استطالت. ثم انفصلتما، أطلق هشام ساقيه نحو الدار، وسرت وحدك كالمنوّم، لم تسلك خطّ سيرك المعتاد، بل اختصرته إلى الزقاق، ومنه إلى السّوق..

ما الذي يجعلك أسير تلك اللّحظة، ها أنت تنزلق في لجّة الحيرة، هل وقفتما معاً تحت الشجرة وهي تنفض

أزاهيرها أم كان ذلك وهماً ! ومرورك بالزاوية الشرابية، دخولك البوابة، سيرك فوق البلاطات الحجرية، وقوفك أمام السّور تعاين المكان، هل حصل في زمن ما ! أيّ متّكأ لهذا الساعد المكدود، وهذه النار الموقدة في الضّلوع، كلّ الذي مرّ كان سراباً، الشجرة أمامك، تمدّ أغصانها، تنفض أزاهيرها البيض فوق رأسك، يتضوّع ما حولك بأريج الزيزفون، وأنت تحلم!

وطّن نفسّك أن تدور حول هذه الشجرة، عيناك تسبحان في دمعتين كبيرتين، درءاً للبوح والشوق واللهفة والحنين، غايتك أن تدرك الذّروة العليا، هاتفاً تبحث عن ولد اسمه: هشام!

وأنت ما زلت أسيرَ حَيْرتك، لأنّك في المرّة القادمة ستلتقي هشاماً تحت القبو، وستحدّق في عينيه الزرقاوين، لن تختلجا أمام نظراتك الثاقبة، لن تبدو فيهما ما يذكّرك بتلك اللّحظة الهاربة، لن تستطيع أن تقول له : أنت جبان! إذا لم يقبل اقتراحك بالقفز فوق السّور، واكتشاف الأرض الخلاء، ما حدث أضغاث أحلام، ثمّ متى كان جدّه الحاج اسماعيل يدلف إلى الجامع في غير مواعيد الصّلاة، لمَ كلّ هذا؟ ! وأنت، كلّما مررْتَ بالزاوية الشرابية، تبدو مهتزّاً، ترجُّك العواطف، ترجّك الأشياء غير المّتزنة، ترجّك قسوة الأيام، ترجّك عتمة المكان، ترجّك هذه الشجرة العتيقة المثقلة بالحنين والصّمت، يرجّك هذا

السّور الحجريّ الحزين، لأنّ قبراً جديداً أضيف بعد سنوات، اقتحم المكان الهادئ، وشاهدةً فتية لشهيد انتصبت وراءه..

ومن بين دمعتين كبيرتين، تمطرُ بهما عيناك يتخايل اسم هشام البحري الذي لم يكن.. ج.. بـــ..ا...نـــ..اً..

❑

-*__البيلون:__ تراب يستعمل قديماً، بعد أن يعجن بالأزهار، كمنظّف للرأس أثناء الاستحمام.*

-*__البقجة:__ صرّة الثياب.*

-*__اليعاقبة:__ حمّام القاضي، الزاوية الشرابية، أماكن حقيقية معروفة في بلدنا.*

❑❖❑

يا أبي..

و.. يا أبي..

ذاب قلبي؛ وأنا ألتقط صورتك في الحارة.

وجه طفولي مذعور، شفتان رقيقتان، تتمتمان .. تستعطفان في بأس:

-لا تذهبي.. لا تذهبي!

....

لماذا نشأتَ يتيماً، لاسند لك ولاظهر .. لِمَ استسلمتَ لحزنك ولم تفعل شيئاً .. فتحتَ عينيك، والدنيا تنا صبك العداء، تتنكّر لك . تشدّ بخناقها على عنقك الغضّ، وتنصب لك الأشراك، أكرهتك على أن تتجرّع كثيراً من الكؤوس المرّة وأنت مذهول صامت، لا تفعل شيئاً .. وماذا بمقدورك أن تفعل؟!

في الدار الصّغيرة، بعد أذان العشاء، بدا لك الضّوء المرتعش ينبعث من شبّاك "العلّية" وأمّك –هناك– تدندن

مغنيّة.. وهي تطرد فراشات الليل التي تحوم حول المصباح.. بدت أمّك، أبعد من نجم . وأنت لا تستطيع الوصول إليها..

صعدت درجات العلّية، لاح ثوبها الأزرق كشراع، حاولت أن تتشبّث به، لكنّها ردّتك بحزم، وهمست:

-هذا ليس وقتك!

تهبط بسرعة، وأنت مقرور، عيناك دامعتان، وقلبك يرتجف. دجاجة خائفة تلوذ بأسفل الدّرج، تتجمّع على حزنك، وخيبتك المبكّرة . تقوقئ بأسى، تصلّ عظامك الهشّة رهبة.. و.. أنيناً..

باب العلّية يوصد دونك . والرجل الذي أخذ مكان أبيك لا ملامح له، غير عينين فهديتين مسمّرتين عليك . وشاربين أسودين دقيقين..

ماذا تريد؟

لا عودة لك إلى حضن أمّك .. وتراب قبر أبيك لم يجفّ.. وأنت عاجز عن الارتقاء . كفّاك النحيلتان تشدّان على الدرابزين، الحمّى تجتاح أطرافك المبدّدة، وحلمك المستحيل ينوس . بين اليقظة والمنام، وأنت تبحث عن صدر دافئ حنون..

ازداد إجهاشك، وارتفع أنينك..

المرّ ما يزال في فمك، ثمّة خطيئة كبرى تجثم على

صدرك، تثير في نفسك الهلع، ها أنتذا تتخلّى عن كلّ شيء، أو أنّ كلّ شيء، يتخلّى عنك .. تبدو لك السماء عالية شاهقة، تفصلها عنك مسافة بعيدة، غاية في البعد، تبدو لك السماء خرساء لا مبالية، لا أنت طفل ولا هي بالصديق.. لا أنت طفل ولا هي بالعدّو، إنها بعيدة..

النجوم ترقب خطوك، والأماسي تجمّد قلبك . تنشد سكينة النفس، ولا سكينة لك في هذه الدار إلاّ أن ترى .. و.. تصمت..

أختك "وهيبة" ذات الجسد الغضّ. سنونوة هزّها البرد في ليلة شتائية ماطرة، ساقاها الهزيلتان تقصّفان تحتها كسيقان الأرجوزات، تحتمي بك، وتحتمي بها، كلاكما فوق كرسيّ بلا ظهر!

و.. يا أبي..

لماذا لم تتعلمّ في المدارس الحكومية، وهذه مدرسة "التطبيقات" على مرمى حجر من الدار!..

ابن البارد. قال كلمته..

طالبوك أن تخلع القنباز. تستبدل بنطالاً به، هتفْتَ:

–يا للهول.. "فلّق زمّ"!

أمّك أصدرت حكمها:

–من أين؟ لا مدرسة بعد اليوم، السوق مدرستك،

السوق ينتظرك!

غدوت أجيراً في سوق الكندرجية..

تركض في الصّباح، وتركض في المساء..

تركض في الظهيرة، وتركض عند العصر..

زوج أمّك بعينيه الفه ديتين لا يغفل لحظة، يريد أ ن يظلّ بعيداً عن الدار .. ليستأثّر بمن فيها، وأنت لم تحفظ سوى بيت من الشعر، حفظته وداومت على الترنمّ به كأنه تميمة..

إنّ من أشقاه ربّي

كيف أنتم تسعدونه؟

وأنت لم تكن كنزيل الحارة الجديدة ، ابن الهبيان، صاحب الدكاكين في الساحة، والأملاك والأموال التي لا تأكلها النيران!

حياتك أن تظلّ في السوق، وأن تركض في السوق، وأن تحرث البحر .. لست من ذوي الحسب والنسب وأصحاب المقامات الرفيعة، تأتأتك المحبّبة تفضح ولا تفصح، كيف لك أن تفتح فمك، وتجرؤ أن تحتجّ . وعلى مَنْ تحتجّ... هكذا خلقك الله، وهكذا أراد!!

كلّ شيء سيطويه النسيان، الأفراح والأتراح في العمر المديد، الجراح التي نالت منك، الحبّ الذي كان

يسلب العقل ويشعل الروح لم يعد هناك ما يُذكر .. ستار كثيف من الضباب يحجب كلّ شيء . وأنت تلوب. كمَنْ فقد عزيزاً، م ا الذي ورثته أخيراً، وهذه الصّنعة لماذا علقت بها؟!

دكّانُك أصغر دكّان في السوق الطويل..

بعد دخلة جامع الشيخ إبراهيم، حين تجتاز دكّان الزّين، ودكّان الشوّاف، تستقبلك الأحذية والبواتين، لا واجهة لها ولا باب. سوى درفتين من خشب تطويان إلى اليمين بسهولة.

يكفي أن تفكّ القفل بالمفتاح الكبير فإذا أنت أمام الدكان الصّغير طاولة مخلّعة (التسكة) تتوسّط المكان، تحتها (التيغار) دلو ماء بلون الطين، لا تستغني عنه . تدفع بين الحين والحين قطع النّعل فيه حتى تلين، ويسهل عليك خرزها مع الجلد، مهنة شاقة تحتاج إلى كفّين خشنتين، بعقد وأصابع متينة ورّمها شدّ الخيطان المشمّعة. وموالاة الدقّ على النّعل القاسي، وسحب المخرز بمهارة بين الغرزة والغرزة..

فضاء دكّانك مشغول بمنمنمات لا حصر لها .. الجدران التي تقشّر كلسها، غدت لوحة فنّية أّخاذة . طلاء قديم أخضر تُرك هناك في الزاوية . وسيور جلدية تدلّت من رفوف غير منتظمة في صدر الدكان . لا تدري من أين جاءت، ولا كيف وصلت .. ثم القوالب الخشبية

اصطفّت في ضلعين متقابلين، جنوداً مستعدين جاهزين، يلبّون الدعوة حين مجيء أيّ زبون .. ومَنْ يجيء إلى الدكان من زُبُن .. غير فلاّحي المنطقة ! حذاؤك المتين طبقت شهرته النواحي والدساكر والقرى النائية، حذاؤك الذي يصمد للحرّ والقرّ .. للطرقات الوعرة والطرقات السالكة بصعوبة . الطرقات الجبلية . والطرقات الصّخرية.. للدروب الصاعدة والدّروب النازلة للأرض المستوية، والأرض المنحدرة..

حذاء لكلّ الدروب، حذاء لكلّ الفصول، والفلاّحون يأنسون إليك، يحبّون استفساراتك عن الزرع والضّرع، والأجواء والأنواء والمواسم وتعاقب الأيام، يستندون إلى التسكة يمدّون أعينهم إلى الرفوف الحانية . والأحذية المصلوبة ببراءة وحنان، ها هنا مبتغاهم، يهمهمون بكلمات قصيرة، مبتورة:

-العصر.

-نعود.. قبل المغرب..

الحذاء الذي يخرج من بين يديك له امتيازه، والزُبن القادمون من أبعد نقطة في المنطقة ينتظرون بلهفة.

منذ الصباح الباكر، ينتظرون، قبل أن تُفتح الدكّان .. سلّة صغيرة مغطّاة بورق التين تستند هناك، قرطل عنب

يتكّئ أمام الباب، خمس وعشرون بيضة بلدية في منديل أزرق، علبة لبن فوق (الدّربند)، مقدّمات لتوصيتك، وأقدام مفلطحة ضخمة تبرز . قلم الكوبيا ينتقل من فوق أذنك إلى أصابعك، تبلّ طرفه بريقك، تخربش فوق كيس من ورق أرقاماً وخطوطاً لا يعرفها غيرك.. يطير القالب الخشبيّ من صدر الدكّان، مخترقاً الصفوف، يطير إلى كفّيك، تقلّبه وأنت تروز بعينيك الأصابع المتورّمة، غير المنتظمة، تنطق قرارك الخطير:

-هذا مقاس قدمك!

تلتمع عينا الزبون بفرح طاغٍ، صار القالب مجسّماً لقدميه، وسيكتسي بالحذاء الموعود، قطعة (السختيان) - الجلد تُفرد، يُسحب النّعل، الزبون راضٍ يدفع مقدّمة الأتعاب، عربوناً، تقبّل كفّك ظهراً وبطناً ترفعها إلى جبينك، ويتهدّج صوتك:

-الحمد للّه.. الشكر للّه..

النهار بدأ، والرزق الحلال يترقرق منذ الساعات الأولى، الدكّان تضجّ سعادة، تترنّح أشياؤها الصغيرة نشوى، الشغل يفرح القلب، وزُبنك لا ينقطعون . أحذيتك تسافر من السوق إلى صوران، إلى كفر زيتا، إلى خان شيخون إلى المعرّة، وسراقب، إلى الرستن و .. حمص.. تهتف بوجد:

-جاءني زبون من قلعة الحصن!

الأحذية تركض ف ي سهل الغاب . تصعد التّلال والنجود. تجتاز المغاوز والحدود .. تتسلّق الجبال، تمرّ بالمغاور والمسالك الصعبة، تهبط الأودية، تدقّ الأرض، أحذية مشغولة بعرق الكدح الشريف. وهذا كلّ شيء، أنت لا تبصر سوى الأحذية . لا تمدّ عينيك إلاّ إلى الأقدام والمشّايات والبوابيج والقباقيب . لا ترفع ناظريك عنها .. ولا تحاول أن تنظر إلى فوق.

ولماذا تفعل ذلك!! لماذا؟!

وأنت لم تكن كابن الكوكو!

عندما تمشي في السوق، لا تنفخ صدرك. ولا تتمّهل في خطوك، لا تضع على كتفك شالاً من الكشمير .. ولا تميل طربوشك جهة اليمين، تسرع إلى دكانك لا تلوي على شيء، لا قطعان من الغنم لك تسرح في بادية اللّه، ولا أصواف، ولا بسط، ولا سجّاد .. ولا خيام.. والنّاس لا يردّون التّحية بأحسن منها، ولا يظلّون واقفين إكراماً لك حتى تقطع الطريق، لا شيء يهمّك على الإطلاق، سوى أن تصل إلى دكّانك، وتطيّر أحذيتك!

وأنتَ لم تكن لك دار!! دار لك لا يشاركك فيها أحد.. وهذه عمّتي التي أثقل قلبها الحزن . وبناتها يحتللن نصف الدّار. وربّما يفكّرن في احتلال نصفها الآخر . وطردنا

منها.. عمّتي ساخطة دائماً . زامّة شفتيها في مرارة، كبرت قبل أوانها مرتدية ثياب الأرملة التي فقدت زوجها وهي صغيرة.. عصبت رأسها بمنديل أسود، تقلّب كفّيها.. لماذا جئنا إلى هذه الدنيا ! ماذا جنيت.. حتى يعاقبنا الله الرحيم!

وأمّي ما ذنبها .. حتى تُبتلى بهؤلاء جميعاً . تريد أن تتفرّغ للبيت والأولاد، ولكنّ الشجار لا ينقطع، وعمّتي لا تنام، ولا يهدأ لها بال إلاّ أن ترى عينيّ أمّي تدمعان!

طاش صوابك يا أبي..

صرت تحدّث نفسك .. تتكلّم. وتحرّك أصابعك، في الدكّان. في الطريق. في السوق، في الحارة، ومن رفسة بغل نجوت .. بخطوات سريعة خفيفة حملتك أجنحة الملائكة بعيداً عن هياج البغل الحرون، وأمّي تهدل بين يديك:

-الحمد للّه.. الشكر للّه..

وأنت لم تفكر في يوم من الأيام بشراء شيء لنا..

لم تفكّر بشراء قطعة أرض كما فعل الصّمودي!

اشترى قطعة أرض كبيرة في المغيلة . صارت تساوي ذهباً.. أبو ريحان، الدّلاّل، وقف في رأس السوق، راح ينادي حتى بُحّت حنجرته:

-على كتف الشريعة.

في طلعت المحطة

في المغيلة.. في البياض، غربي السكّة، شرقيّ السّكة من يشتري بفرنك.. بنصف فرنك!!

شدّدْت أحذيتك.. أحكّمْت شدّها في القوالب، وردّدت ساخراً:

-كلّها لا تُسركن، لا ماء يصل إليها!

لم تكن تصغي إلاّ لوقع أحذيتك، وأطيطها الأرضي.. لم تكن تسمع إلاّ ضربات قلبك المطمئنّ الوادع.

مرةً واحدة..

مرة واحدة فقط..

في رحلة أيامك المجروحة .. أنار الله هذا القلب. وهداك.. فاضت جوانحك حباً وحناناً وسعادة .. عواطفك الجيّاشة فاقت طاقتها، لا بدّ أن يقاسمك العالمَ فرحتك، احتدمت في نفسك رغبة أن تخرج من السوق .. من الدكّان، من الدار من الحارة، أن تخرج إلى الدنيا، لتبلغ الكلمة الطيبة للناس والحجارة وأهل الحارة والسوق .. والدكّان..

الحمد لله.. الشكر لله..

لقد نجحْتَ..

ومَضَتْ نجومُ لي اليك المعتمة نصالَ سيوفٍ فوق رأسك الحليق. ذات ليلة صيفية فريدة، سجّل لك الله في صفحة الخلد أن تكون إلى جانب هذه المرأة التي هي أمي.. وأن تكون هي إلى جانبك!..

أحلامك طارت، صرت سحابة تسوقُها ريح رَخاء، صرت عصفوراً تحلّق بجناحين قويين، صرت في السماء السابعة مرة واحدة، أناشيد مبهمة ردّدتها الحارة، وعلى عتبة الدار تماوجت أغنية ساحرة مع إطلالة أولى "كرتونة" من الشام، فيها أصناف من الجوارب النسائية وأصناف.. بحة ناي تدفّقت في الأركان، ودكانك الصغيرة رفعت تراتيلها وهي تشهد سقوط الأحذية، والقوالب . والنّعل والسختيان . ورحيل التّسكة المخلّصة والتيغار، والدّربند، لقد انقلبت إلى دكّان لبيع الجوارب النسائية والألبسة الداخلية، والقلب فتح بوابته لكلّ الأفراح التي أطلّت.. كل الأفراح التي هلّت بعد انتظار طويل..

ذلك ما اختارته أمّي، وقد أحنيت رأسك المعاند هذه المرّة وأصغيت..

رائحة الليمون، رائحة الياسمين، والعراتلية، وتنكات الفلّ، والورد الجوري ملأت فضاء القاعة الجوانية، صرت رجل البيت، رجل الدكّان، والعصافير تناسلت، في سقوف الدار، واليمام أطلق هديله الشجيّ آمناً، وأمّي تخطر هنا وهناك، تزيح ما يثقل الروح، راضية مبتسمة،

وأنت تردّد باطمئنان رحبّ:

-كلّ شيء بإرادته سبحانه وتعالى:

انظر إلى كفيّ .. افتح عينيك، هل كلّ أصابعي متماثلة.. أصابع صغيرة، وأصابع كبيرة، الدنيا هكذا .. أناس و .. أناس.. أسماك في أعماق البحر .. الكبير هناك.. والصغير هنا.

ليغفر الله لنا .. ولك.. كأنّما تتداح نشوة غامرة أستشعرها. تهزّ كياني، ترجّ عواطفي .. لقد مضيت .. حسمت أمرك ومضيت .. والطريق ما يزال أكثر وعورة.. أكثر مشقّة .. والدّرب الذي سلكته .. ليس دربك.. سامحني.. يا أبي..

....

❐❖❐

حكايات من حارتنا

حكاية فؤاد

تبدو اللوحة غير مكتملة في مشهد الحارة الصّغ يرة، تبدو ناقصة إذا لم تدقّق النّظر في ذاك الواقف عند أول الزقاق المسدود، عيناك تتفرّسان، عيناك تمعنان في القامة المديدة. والمنكبين العريضين، والوجه الحليق النّاعم، ربّما تهتزّان قليلاً أمام زرقة العينين الهادئتين، ربّما تتأمّلان في دهشة وانبهار، لا يستطيع أحد أن يعرف الحكاية الماضية، لا يستطيع واحد أن يرويها كما تستحقّ أن تُروى هناك روايات مختلطة، روايات متباينة، هناك من يزيد على الحكاية أو ينقص منها، والرجل الطويل العريض، يذرع بقامته الضخمة الحارة صباح مساء، ماثل أمام الجميع، صار جزءاً من اللوحة العامرة، صار ركناً من المشهد الحيّ . والواقع النّابض، أهذا هو فؤاد دعدوش؟!

أهذا هو الرجل الذي انطلق من الحارة يحمل مزمار القصب، بين أصابعه، متوجّهاً إلى الشام، إلى دار الإذاعة السورية هناك، في أيام نشأتها الأولى، أهذا هو الذي خرج بحنجرته الذهبية وصوته الساحر، يريد أن يُسمع الدنيا ترديده وألحانه، يريد أن ينشر أنغام مزماره، وترجيع أغانيه العذاب..

الدار المحشورة في نهاية الزقاق المسدود شهدت حكاية فؤاد المغنيّ، وقد ضاقت جدرانها بالصّوت الملائكي، واهتزّت أركانها بنقرات العود والغناء الشجيّ . أخوه أبو سليم، مصلّح الدرّاجات بارك سفره وشجّعه..

الحارة كلّها ترنّحت نشوى تحت طبقات صوته الآسر، الحارة كلّها أيّدته ودفعتْ به إلى أن ينطلق محلّقاً، إلى الشام، إلى الإذاعة الناشئة لتردّد هناك صدى ألحانه المتدفّقة شلالاً من حبّ وأصالة وعذوبة وشفافية..

صار للحارة فنانها الأصيل، صار لها مغنّيها المبدع، صار لها فؤاد إبراهيم " الذي سيصدح عبر الأثير بأنغامه الشجية، صار لها صوتها المميّز الذي سيبثّ أحلى الأغاني، ومن كل مذياع تناهي إلينا:

-هنا دمشق..

تستمعون سيداتي وسادتي الآن إلى أغنية جديدة لفؤاد إبراهيم.. أية سعادة مفاجئة هبطت على الحارة.. أيّة

ألحان مسكرة انهمرت عليها، أزهار الياسمين طارت في فضائها الشفيف، لم يكن هناك أروع من هذا .. لم يكن هناك أبدع من أنغام فؤاد، وترجيع ألحانه، صارت ضفائر لأزهار الربيع، صارت عصافير تطير، والحارة بتوقها وأمانيها تنهض لاستقبالها .. وصباياها تاهت بين نقرة العود، وترديد المزمار ثمّ .. هل تكتمل الحكاية؟ .. لا بد من أن تنتهي فهل كانت الحارة تنتظر مثل هذه النهاية؟..

استيقظت – في ذلك الصباح– وقد أحزنها أن تستيقظ.. الزقاق المسدود رفع راية الهزيمة والانكسار، والدار المحشورة في نهايته ردّدت لحناً جنائزياً مؤثّراً .. لقد عاد فتاها الطامح الفنّان.

عاد مغامرها الذي اقتحم عالم الشهرة والأضواء، عاد محطّماً مهزوزاً مهزوماً، مجــ .. نـــ..و...نـــ..اً التاث عقله، ولم يعد يعرف أحداً، كسر عوده وقطع أوتاره، وداس بنزق مزماره ومزّق نوتاته .. رجع فؤاد دعدوش رجلاً آخر . لفّه صمت وغموض، روحه لم تعد معنا.. وجهه الحليق الناعم يشي بابتسامة هازئة، ساخرة، مضيّعة، عيناه العميقتان بزرقة شفيفة يرسلهما في المطلق، كان لا ينظر إلى شيء، لأنه لم يكن يهتمّ بشيء، صرنا أمامه مجرّد أطياف لا وزن لها ولا شأن . وأخوةٍ أبو سليم البسكليتاتي " يحاول أن يأخذ بيد ه ليعيده إلى عالمنا، لكنه كان يرفض باستمرار . صباح مساء يذرع

الحارة بخطواته المديدة، صباح مساء يطوف من أول الزقاق المسدود إلى نهاية الحارة إلى طرف السوق . ثم يؤوب وقد لفّه ضباب أزرق، وجهه ينطق بالمرارة، ينطق بالحزن، مثل جان فالجان، بطل هيجو، وفمه أحياناً يلتوي بابتسامة هازئة ساخرة، وهو صامت، يتحدّى بصمته الحارة، والناس والسوق والعالم، والصمت البليغ لا يفصح عن أصل الحكاية، ورواياتنا مختلطة، فصولها متباينة، لكنّ همساً يتردّد في الضّلوع، فؤاد عاشق، والعاشق حسّاس، ألحانه انهمرت على حسَان الشام، التقى واحدة منهن، فضاع.. ترك قلبه هناك، ترك ألحانه وأغاريده، ترك روحه، و.. عاد..

لم يبق منه إلاّ قامة مديدة، ومنكبان عريضان، ووجه حليق ناعم، وعينان زرقاوان، تحدّقان في الفراغ، والحكاية ما زالت مشوّشة غامضة، مبهمة، تنتظر من بعيد ترتيب فصولها!!

■■■

أوراق الورد

و... كنت أسمع اسمه يتردّد في دارنا، وأسمعه يتردّد في حارتنا الصّغيرة واسمعه أيضاً يتردّد في السوق، عند مدخل الجامع، أو قرب البوّابة الحجرية، أو أمام الفرن، ولم أكن - وأنا صغير بطول السلامية- قد رأيته، أو وقعت عيني عليه، حتى في الأيام التي استهواني اللعب، أو أخذتني فيها حمّى الانطلاق من قيود الدار والمدرسة، والسوق، والدكّان، لم أكن قد بصرت به، على الرغم من أنّ اسمه صار محفوراً في ذاكرة الحارة من أولها إلى آخرها.. جعفر الطّيار!

يجيء صباح، لم يكن مثل أي صباح! لم يكن مشرقاً ولا مضيئاً، لم يكن يحملني على جناحي فراشه، أو يطير بي في دنيا مبهمة بهيجة، كان صباحاً معتكراً، جعلني أتعس الأولاد، وأشقاهم، كنت أكثرهم حزناً وكآبة، وامتهاناً، أنا التلميذ المجتهد الذي ينال أعلى الدرجات في المواد الدرسية، أنا التلميذ الصغير، قدوة تلاميذ مدرسة " نور الدين الشهيد" أُطرد من المدرسة!!

ذلك الصّباح الحزين..

وقفت في الباحة، وقد اشتعل قلبي بالحب لاستقبال نهار جديد، ودروس جديدة، وتوق إلى الكشف والمغامرة والانطلاق في دروب العرفان، ذلك الصّباح حضر المدير والمعلم والمناوب، قُرِئت أسماء التلاميذ الذين لم يدفعوا لـــ "صندوق التوفير" واسمي في رأس القائمة..

فصلونا عن الأرتال المتوجّهة إلى الصّفوف، ثم بعصيّهم ساقونا إلى الباب . صرنا خارج المدرسة، أول مرة أجد نفسي في الطريق، ومَنْ سينقذني ليرتين من أجل صندوق التوفير، مَنْ يدفع عنّي غائلة التسيّب والعطالة والتشرّد خارج سور المدرسة التي شيّعتها بدمعت ين تدحرجتا فوق وجهي الملتاع!

ليرتان للتوفير، وما التوفير ! وما الصندوق؟ ولماذا لم نترك حتى نهاية الدوام المدرسي !.. تراقصت العصا أمام وجوهنا، تراقصت المرئيات .. انطلق بعض التلاميذ ضاحكين، لقد ظفروا بنهار حافل جديد من اللّعب .. لم يكن يهمّهم شيء.. أما أنا فإلى الدار.. مثل عصفور ضاع عن سربه!

وعلى الدرجة الحجرية، أمام بابنا الخشبي جلست .. كنت أبكي. ولبكائي نشيج يشقّ الصّدر، لن يعطيني أبي

الليرتين، لأنه لم يشتغل منذ أسبوع، وليس مع أحد ما يردّ عني تشرّدي وعطالتي!

ورأيت، من خلال دموعي، قدمين توقّفتا أمام الدار ! قنباز مقلّم قد حزم عند الخصر بزنّار حريري وقامة إلى القصر أميل، ورأس بطربوش أحمر، رأس برز فيه شاربان أسودان، معقوفان امتدّت كفّ حانية إليّ، وجاءني صوت أجش:

–لماذا تبكي، يا ولد!

–طُردت من المدرسة .. لم أدفع الـــ .. تـــ.. و.. فـــ.. يـــ.. ر كنت أختنق بالبكاء، وأشرق بدموعي.

–طردوك وجه النهار!

–هـــ.. هـــ.. هـــ..

–تعال!

أخذني من يدي، ولم أعرف كيف عدت من جديد..

في غرفة الإدارة، وكان الباب مواربًا، توقفْتُ هناك توقفْتُ بخشوع، وأنا أرى الرجل وقد استند إلى طاولة المدير، وجلجل صوته بمهابة .. كان طربوشه الأحمر ينسجم مع الصّوت البهيّ..

–طفل يُطرد من أجل ليرتين .. أبوه مريض.. و.. و..

لم أعد أسمع شيئاً..

لقد امتلأت نفسي بامتنان، فاضت بالحبّ لهذا الرجل، وجدت أنه شغل ساحة رؤياي، كبرت قامته، رأسه في السماء، وطربوشه الأحمر بعيد هناك يسبح في علّيين، ووجهه بشاربيه الأسودين يشعّ بنور أخّاذ .. غابت غرفة الإدارة، اختفى المدير، امّحت صور المعلمين، اختفت عصيّهم، وظلّت طلّة الرجل، تملأ المكان، بقي صوته البهيّ يجلجل بأسمى معاني الغيرة، والتعاطف والحبّ..

ذلك الرجل هو .. جعفر الطّيار، مختار حارتنا الصّغيرة، التي حفرت اسمه فوق الأبواب والشبابيك ، وشرفات البيوت وباحات الدّور.. و.. في قلوب قاطنيها..

■■■

في انتظار الحبّ

لو اجتزت التلّة هناك . تاركاً ألعاب الاولاد، وموليّاً وجهك نحو مدخل الحارة البيضاء، مودّعاً صخبهم وضجيجهم الذي يشقّ عنان السماء ماضياً إلى غايتك، مبتعداً عن ألعابهم الخشنة، متفادياً قذائفهم من الحجارة والحصى : لو انصرفت إلى سبيلك تنشد الأمان. تقطع البلاطات الحجرية، وتستقبل دار الهبيان، ثمّ دار بيت عمّك ثم داركم الصغيرة، ثمّ .. أول الزقاق المسدود، لتردّدت خطواتك واضطربت قدماك، فمن خاصرة الحارة القبلبية يبدأ الزقاق المسدود وأنت لا تريد إلاّ الانطلاق، لا تريد إلاّ أن تفتح ذراعيك وتركض، مهراً طليقاً في الدروب الفسيحة، ولكنّ الزقاق المسدود يغريك . شيءٍ ما يجذبك إليه، وأنت منوّم، لقد قطعت السوق واجتزْت التلّة، وعبرت الحارة المترعة بفيوض من الظلال المذابة في ضوء النهار، الجدران والشبابيك والأبواب، والعتبات لم تبرح مكانها .. سقيفة التوتياء التي تظلّل بيت الدّرج المفضي إلى السطوح في

محلّها. والمزراب الحجريّ المنحوت منذ دهور معلّق بين الأسطحة، لا يغادر موضعه، وأنت ماضٍ، لا تدري، كيف تجمعّت أمام ناظريك رؤى، كنتً تحلم بلا شكّ، وهذا الحلم هو أول الطريّق إلى تحقيق ما تتوقّعه.. دائماً يبدأ حلمك رؤى تعبر مخيّلتك . طيف سماويّ يلوح لك، أنت تطارد الحلم، أنت تركض وراء رؤاك . طيفه البهيّ يشدّك إليه، ها أنت في الزقاق المسدود، ما الذي يدفع بك نحوه؟ !

تمتدّ كفّ صغيرة .. كفّ ناعمة رخصة . تصافحك. أنت الآن في دائرة الحلم، يشرق وجه بدريّ، ابتسامته تضيء، لك الدرب، أصابعك تحتضن الكفّ المستسلمة، الزقاق المسدود، لم يعد مسدوداً بوّابة القلب على رحبها انفتحت أمامك، والزقاق اشتعل بالوجد، والبلاطات التمعت تحت خطواتك، نافورة من نور انبعثت أمام ناظريك، وأنت تخطو .. وتخطو.. صلّى للّه، ابتهلْ إليه، أنت في روضة الحبّ، لقد استجيبت دعوات أمّك، أنت مرقي بتعاويذها المباركة، الزقاق الذي كان أمنع من حصن، وأعتى من مدينة النّحاس، صار سالكاً .. بنعومة..

ممّ تخاف ! وأنت تدرج على بساط من ورد، وفلّ، وريحان، سلام لك حتى مطلع النهار، سلام الوعي . سلام الأشياء، سلام المرتجى والمؤول، هي ذي دار

مَنْ أطلّت . هي ذي مسالكها المشتعلة، لولا الحياء لهاجني استعبار .. لكنّك تمضي . كفّان متعانقان، والدرب يواريك .. الجدران تحنو على قامتين مسربلتين بالبراءة والطّهر، الشبابيك تطير، من توق إلى الزمن الآتي، نسائم مهفه فة، تهبّ عليك، وأنت تشدّ كفاً ناعمة، كإضمامة اللؤلؤ أيّ كنز عثرت عليه، طرْبه إن استطعت، أو اعتل سطحاً قصيّاً، أنت أسير لخطواتها . أسير لعواطفها الطازجة ..

سقطت وحشة المكان، سقطت مخاوفك وأوهامك، غدا الزقاق ملعباً، والسماء الفضاء من فوقك مرتعاً، لك وحدك لها وحدها .. لكما معاً .. هل ستبقيان في دائرة الحلم؟ وهج نوراني يأخذك إلى أحضانه، وأنت تدور بين البلاطات المحترقة .. تسبح في بؤرة البوح واللّهفة والشوق .. كفّان متعانقان، والحلم في بدايته، والحارة غافية، والأولاد بعيدون، عند التلة، يمارسون شقاوتهم، وأنت منوّم، ناسي اً أنّك في أوّل الدرب، هاتفاً مع نبضات القلب، هل هذا هو الحب !!

وكأنّ المزراب الحجريّ المنبثق من سطح داركم، سمع هتافك الأخرس، وكأنّه وطّن نفسه أن يهبّ منافحاً عن الشرف الملثوم، فأرسل دفقة غاضبة من ماء معتكر، وأمّك تغسل السطوح، هذا الوقت ليس وقتك، وهذا المكان ليس مكانك، طارت الرغائب،

وضاع الحلم، فأهبط من ذروتك العليا، وأنس أنك
التقطت كفاً ناعمة، في أول الزقاق المسدود، عد إلى
سربك لاهبّت عليك نفحات علوية، ولا شرّدتك
ابتسامة، هذه حارتك البيضاء، والغزالة نفرت بعيدة،
فانفض عنك عباءة السذاجة، والتحف بالستر و ..
الانتظار ..

❒❖❒

البحر

ألا ما أمتع الصّيف .. وأشدّ فتنته، وأبعثه على الراحة.. والاسترخاء..

حدّث أبو أحمد نفسه..

في الصّيف يزدهر العمل، تكثر حركة البناء..

سيارات الرمل تتقيّأ حمولتها أمام مداخل العمارات..

النباتات والأبراج والطوابق ترتفع.. وترتفع..

أصحابها يريدون أن ترتفع و.. ترتفع..

أبو أحمد ينقل الرمل إلى الطوابق..

القلب يفتح بوابة للحلم، والنفس تتوق إلى أن يمضي النهار حثيثاً، .. نهاية النهار، نهاية الصعود والنزول، نهاية الألم الذي يهاجم كتفه الأيمن .. عرقه يتلألأ في ضوء المغيب.. يتقاطر مع الخطوات اللاهثة، في الحرارة القائظة، في غمرة السكون، وقد بدا كلّ شيء غارقاً في

الكسل، كلّ ما حوله وسنان، وهو ما يزال يعانق ذرات الرمل، يضمّها إلى صدره ضمّاً قوّياً، لا تسمع منه نأمة، ولا صوتاً..

تنبسط أساريره آخر النهار .. يقبض أجره، ويمضي.. يرفل بثيابه العتيقة، مزهراً بعرقه وغباره..

في الطريق إلى الدار سيشتري بطيخة، يبلّ بها ريقه، مع أولاده وزوجته، خبز وجبن وبطيخ . ستقطع أم أحمد البطّيخة، وتمتد الأيدي .. وأبو أحمد يبشّ وجهه .. وهو يرنو إليهم.. سوف يقول أحمد:

-أبي.. خذنا إلى البحر

-البحر!

ضحك أبو أحمد.. ضحك حتى دمعت عيناه..

البحر.. البحر، نذهب إليه، سنذهب..

قالت أم أحمد:

-الأولاد لا يعرفون البحر .. أنا نفسي لم أشاهده إلا مرة واحدة. حين كنت في العاشرة!

أبو أحمد أيضاً لم ير البحر، منذ عشرين سنة أراد أن يشتغل في طرابلس، عتّالاً في الميناء. ذهب إلى هناك مع العمال، ثم رجع إلى بلده بعد ثلاثة أيام، حَنّ إلى داره. وهذا كلّ ما يتذكره عن البحر..

-بابا.. يوم واحد فقط.. نذهب بالقطار!

هزّ أبو أحمد رأسه، وسكت..

شعر بوخزة في كتفه، هذا الألم لا يتركه.. هل يقول:

-البحر ليس لنا.. البحر لا يحبنا..

ولكنْ.. لا.. لماذا يقول هذا .. هنالك سيارة رمل . سيرفعها إلى الطابق الخامس، سينام باكراً من أجل الغد..

.. الشاطئ هناك بدأ يزدحم بالناس الوافدين..

أولاد يهرولون.. وأبو أحمد يهرول معهم .. والأولاد وراءه. أم أحمد.. أيضاً..

ما أجمل البحر .. فضاء بلا حدود، وأشرعة مسافرة.. وزرقة شفيفة حانية.. وأمواج تسافر وتعود..

ظهرت وجوه لسماسرة وبائعين ومؤجرّين..

هذا غير مهمّ..

استقبله واحد منهم..

ابتسم له وهو يعطيه مفتاح "شاليه".. يطلّ على البحر مباشرة.. الشاطئ رمليّ هنا .. والرمل يعانق الأمواج الناعمة.. على نحو أخّاذ رائحة سمك مشوي نفذت إلى أنفه.. الله.. الله، سمك مشوي وبحر، وماء مثلج، وأولاد كالملائكة وجوههم كالأقمار، وأم أحمد حورية تخرج من البحر، نسي أبو أحمد كلّ شيء.. نسي دفعة واحدة، أجرة

البيت، صخب المارة والجيران والمياه المقطوعة، هو الآن يطير، يفرد ذراعيه فوق المدى ويطير . الجوّ اللطيف، البحر الهادئ، الشاليه الحالم، الشرفة الباذخة . وهو يطير، جيبه منتفخ بالأوراق النقدية، وأم أحمد عروس البحر تمسك يده. ولكنْ.. غير معقول.. هذا النعيم كلّه، وأنتِ دامعة العينين .. تبكين.. تهتف أم أحمد، ابنك الصغير ضاع على الشاطئ . لا.. لا .. البحر غدّار، الشاطئ غدّار، شعر أنّه لم يعد يطير . صار يغوص في رمل الشاطئ، باحثاً عن ولد بطول السلامية، صار يغوص والرمل ثقيل.. ثقيل، يكاد يكتم أنفاسه..

فتح عينيه .. مصراع النافذة المخلوع يتحرّك فوق رأسه، وهو ما يزال في فراشه . الشمس بدأت تتسلّق الحائط الأسود، الأولاد يغطّون في النوم، وأم أحمد تتثاءب وهي توقظه:

–طلع النهار.. يا رجل..

ظلّ يحملق في السقف .. عبثاً حاول أن يتذكّر .. نهض إلى ثيابه المكوّمة، كان يرتديها في شرود .. لم يعرف كيف دفع الباب . اختطف التنكة المركونة وراءه، وأسرع غير عابئ بشيء...

❒❖❒

الفهرس

الرغبة في الاختفاء 5

السّنديانة 17

الواحة 23

صورة المشتاق 29

زيارة فاطمة 39

المرور ممنوع 49

احتراق العصافير 57

اسمه هشام 71

يا أبي.. 79

حكايات من حارتنا 91

حكاية فؤاد 91

أوراق الورد 95

في انتظار الحبّ 99

البحر 103

❒❖❒

صدر للكاتب

الأعمال القصصية

*قصص البطولة للناشئين- 1975- عشرة أجزاء- دار الغزالي.

*قصص السيرة المصورة - 1976- خمسة أجزاء- دار الغزالي.

*أحلام الذئب- 1976- دار المعرفة.

*الحيوانات الموسيقية- 1976- دار المعرفة.

*لماذا حزنت العصافير؟ -1978- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.

*قصص الفاتحين للناشئين- 1979- عشرة أجزاء- دار المعرفة.

* قال القطار الصغير-1981- وزارة الثقافة- دمشق.

* حكايات إياد- 1981- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.

* السنونو طارت- 1983- وزارة الثقافة- دمشق.
* صيحة من السماء- 1983- دار المعرفة.
* طفلة اسمها رزان- 1986- وزارة الثقافة- دمشق.
* فارس القلعة الصغير- 1986- وزارة الثقافة- دمشق.
* وجه القمر- قصص 1987- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
* بيتنا الصغير- 1988- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
* سعيد العاص- 1992- وزارة الثقافة- دمشق.
* عذرا أيها السادة- 1992- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
* حكايات أحمد- 1993- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
* فرسان البحر- 1996- اتحاد الكتاب العرب- دمشق.
* في دارنا ثعلب - 1997- اتحاد الكتاب العرب - دمشق.
* شكراً يا أمي - 1997- دار الحدائق- بيروت.
* في محل الألعاب- 1995- الكويت.
* تمثيلية- تمثيلية- 1996- الكويت.

وهناك أربعة كتب منهجية هي:

* الخنساء (شاعرة الرثاء والوفاء) 1978-دار النشر

للجامعيين- حمص.

* أدب الناشئة- 1989- وزارة التربية السورية- مشترك.
* في أدب الأطفال- 1994- اتحاد الكتاب العرب - دمشق.
* الإمام الصادق. إمام الفكر والسلام- بيروت- جائزة التأليف الأولى 1997.

❐❖❐

رقم الايداع في مكتبة الأسد الوطنية

صورة المشتاق : قصص/ نزار نجار- دمشق؛
اتحاد الكتاب العرب ، 1999-
95ص؛ 24سم.

1- 813.01 ن ج ا ص 2- العنوان
3- نجار

ع-1999/3/439 **مكتبة الأسد**

❑

هذا الكتاب

مجموعة قصصية عالجت أ حوالاً اجتماعية وعاطفية وإ نسانية، ضاجة بالحياة وتعقيد اتها ومشكلاتها.

مجموعة تشيع فيها أ طياف الروح ومواجع القلب و آهاته.

❑

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory